اشتباك عربي

العدد الخامس

ابريل ٢٠٢٣

المشهد العالمي

المشهد العربي

ملف خاص

العراق ٢٠ عاماً من الغزو

"إذاً دعونا نُطلق النار عليهم واحداً فواحداً"

الفهرس

المشهد الدولي	3
المشهد العربي	15
الماركسية والموقف من القومية والصهيونية	35
العروبة	41
دولة واحدة لمغتصبي فلسطين	50
عشرون عاماً من الاحتلال ولا يزال!	58
تواشج قطبية الصين ومناطقية سوريا	70
ملاحظات على قضية التنوير ومنهج البحث فى الفقه الإسلامى (2)	73
عن سالم حميد .. إمرؤ الشعر	77
رحلة الى الجسر	84

المشهد الدولي

..... ولأن المنظومة الدولية هي وحدة تحليلية واحدة، فإن أحد أهم المتغيرات في السياسات الدولية هي حال القوة المهيمنة في النظام العالمي، وبشكل ملموس، فإن أحد أهم المتغيرات في السياسة الدولية الراهنة هو حال الولايات المتحدة الأميركية، القوة المهيمنة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ففي أعقاب الحرب الامبريالية الأولى، استطاعت الولايات المتحدة أن تتمتع بهوامش هائلة في مؤشرات قياس القوة والهيمنة (سياسيا، اقتصاديا، عسكريا، أيديولوجيا، الخ) تفصلها ليس فقط عن باقي دول العالم، بل وحتى عن دول المركز في النظام العالمي. هذا، بالتالي، لم يجعل من الولايات المتحدة القوة المؤثرة والمتغير الأهم في الشأن الدولي، بل وأصبحت، بعد الحرب العالمية الثانية، القوة العالمية المهيمنة بشكل واضح وغير قابل للتشكيك.

لكن عوامل الهيمنة، بسبب طبيعتها التاريخية والبنيوية، هي دائما متغيرة، سائلة، ومرنة، وهو ما يفسر ما حصل من انتقال للقوة المهيمنة بين أو عبر دول المركز الإمبريالي بسبب فقدان الدولة المهيمنة لهوامش القوة الشاملة وخسارتها لصالح منافس جديد. الولايات المتحدة التي تمتعت بهوامش هائلة في مؤشرات قياس القوة والهيمنة تفصلها عن باقي دول العالم بدأت تخسرها كما سنرى، وأصبحت هيمنتها موضع تشكيك وتراجع ملموس. لكن هذا لا يعني أن ما نشهده ويجري الآن، ونزعم أنه تحولات عميقة في المنظومة الدولية، هو مجرد استبدال تقليدي للقوة المهيمنة (أميركا في هذه الحالة) بقوة مهيمنة أخرى كما كان الحال منذ ما يسمى القرن السادس عشر الطويل (١٤٥٠-١٦٤٠) أو فترة تأسيس النظام الرأسمالي العالمي - أو بشكل ملموس، ليس مجرد انتقال من هيمنة الولايات المتحدة على المنظومة الدولية الى هيمنة الصين، أو حتى مجرد تحول من نظام أحادي القطبية الى آخر متعدد القطبية. سنزعم، كما سيتضح لاحقا، أن ما يجري من تغييرات هي أعمق من ذلك بكثير كونها تحولات في بنية النظام العالمي نفسه، تتضمن تحولات سياسية، اقتصادية،

أيديولوجية، ثقافية، الخ.

لفهم منطق تحولات النظام باختصار شديد، يمكن القول، أنه يجب النظر إلى النظام الرأسمالي العالمي على أنه أولًا: نظام، وثانيًا: تاريخي. فكرة النظام تشرح وتفسر آلية وطريقة عمل النظام العالمي (كيف تلعب شطرنج مثلًا وفق قوانين وقواعد اللعبة بشكل متزامن أو سينكروني، كون لعبة الشطرنج هي المثال الأفضل حول فكرة عمل النظام). أما فكرة أن النظام تاريخي فتشرح وتفسر كيفية نشوئه، تحوله، واندثاره، أو البعد غير المتزامن أو الدايكروني. بخصوص كونه نظامًا، فإنه يحتوي على هياكلَ وبُنًى تظهر على شكل إيقاعات/تواترات دورية أو بشكل دوري (من دورة)، وهذه الآليات تعكس وتضمن أنماط التكرار من دورةٍ لأخرى. ولكن هو تاريخيٌّ أيضًا، بمعنى: أنه لا توجد حركة إيقاعية أو تواتر يعيد النظام إلى نقطة توازنٍ ثابتة بعد كل دورة. بدلًا من ذلك يتحرك النظام على نقاطٍ متمايزةٍ في خطٍّ متواصل. وحين تبلغ هذه الاتجاهات ذروتها في نهاية المطاف يصبح من المستحيل احتواء المزيد من التعويضات عن الاضطرابات المنظمة من خلال آلياتٍ تصالحية. ومن هنا يخضع النظام لما يسميه ايمانويل والرشتين «الاضطراب المتشعب» أو ببساطة التراكم الكمي والتغير النوعي.

مقدمة: المستقبل في التاريخ

الزعم أعلاه، أن ما نشهده ليس مجرد انتقال تقليدي للقوة المهيمنة أو حتى تشكل نظام متعدد القطبية، يعتمد على إدراك أن خصائص الأنظمة العالمية غير ثابتة، فلا توجد طريقة واحدة، محددة، وفريدة فقط لتنظيم الأجزاء. علاوة على ذلك، إنّ الأنظمة العالمية أيضاً ليست راكدة (جامدة)، بل تتطوّر وتتغيّر باستمرار. وفي هذه اللحظة من الزمن، يعيش النظام العالمي الذي نشأ في القرن السادس عشر مخاض تغيير عميق. لهذا، فإنّ مقاربة مقارنة بين النظام الراهن والنظام الذي سبقه قد تساعدنا في فهم ما ينتظرنا في المستقبل بشكل أفضل. المقارنة هنا مفيدة كونها تكشف لحد كبير جوهر وطبيعة ومعنى التباين بين النظامين. هذا التباين، كما سنفسر بعجالة يوفّر إمكانية مهمة للمقارنة مع النظام العالمي الذي نشأ منه لاحقاً، أي النظام الذي أعادت أوروبا ولاحقا أميركا (أوروبا الجديدة) تشكيله لتحقيق أهدافها، وسيطرت عليه لفترة طويلة.

تجادل جانيت أبو لغد، أحد أهم أقطاب نظرية النظام العالمي في كتابها «ما قبل الهيمنة الغربية: النظام العالمي ١٢٥٠-١٣٥٠» باختصار أن «سقوط الشرق سبق صعود الغرب». هذه العبارة كانت محور الجدل الكبير، والنقاش العميق، الذي استتبع صدور الكتاب، خصوصا حول «السقوط» و«الصعود» كمفهومين من جهة، وأيضاً كحدثين من جهة اخرى، والتبعات الكبرى لذلك. ومع صدور كتاب أندريه غندر فرانك «عودة الشرق: الاقتصاد الكوني في العصر الآسيوي»، الذي بنى على كتاب أبو لغد وأكمل من حيث انتهت (أي ما بعد عام ١٣٥٠)، عاد وتركّز الجدل على معنى وطبيعة «السقوط» و«الصعود» كمفهومين، وأيضاً كحدثين، أي أنهما إمّا حدثان منفصلان، حيث شَكَّلَ الثاني (صعود الغرب) حالة قطع مع الأول (سقوط الشرق)، وفي الوقت ذاته مَثَّلا معاً سقوط وصعود نظامين مختلفين تماما، أم أنهما مفهومان وحدثان مترابطان، مَثَّلا فقط مرحلتين متمايزتين في تاريخ نظام عالمي واحد وتاريخ مستمر بلا انقطاع. باختصار، الجدل الأكاديمي والنظري تمحور حول سؤال مهم جدا لأن الإجابة عليه قد تعني إعادة كتابة تاريخ النظام العالمي كله، وهو ما يعني أيضا إعادة النظر في طريقة استشراف المستقبل. السؤال هو: هل كان النظام العالمي الذي تأسّس وهيمنت عليه أوروبا منذ القرن السادس عشر جديداً فعلا، خصوصاً بكونه عالمياً (وحتى النظام الأول في كونه عالمي)، كما كان سائداً ومقبولاً لدى المؤرّخين وعلماء الاجتماع الغربيين خصوصا، أو أنّ ما حدث كان مجرّد إعادة بناء للنظام العالمي الموجود أصلاً، لكن مع انتقال مركزه من الشرق إلى الغرب وما يتبع ذلك من تحولات طبعا؟

تُجادل أبو لغد باختصار شديد، أنّ النظام الذي سبق القرن السادس عشر الطويل (١٤٥٠-١٦٤٠) كان عالميا أيضا، أي أن الزعم أن النظام العالمي (بكونه عالمي كما هو) أوروبي المركزية الذي نعيش فيه هو أوروبي المنشأ أصلا، كما هو الزعم السائد غير دقيق. أي أن ما حصل، كما يجادل فرانك استتباعا لأبو لغد، أن مركز النظام (العالمي الموجود أصلا قبلها بقرون) والشرقي المركزية، الذي أرَّخَا له، انتقل إلى أوروبا في القرن السادس عشر، ولم يكن نظاما جديدا وعالميا للمرة الأولى ولم يتأسس في أوروبا.

هذا النظام العالمي الذي كان مركزه في الشرق وصل ذروة الصعود والنمو بين أعوام ١٢٥٠ ــ ١٣٥٠ ميلادية، وأعقب ذلك حالة طويلة من الكساد الطويل أدّت إلى تراجع ثم اندثار هذا النظام، وولادة نظام عالمي جديد في القرن السادس عشر، انطلاقاً من جنوب وغرب أوروبا.

قبل ذلك، وحتى عام ١٣٥٠ تقريباً، تُجادل أبو لغد، أنّ النظام العالمي السائد كان يتشكل من ترابط ثماني مناطق (مركزها المدن)، ويتضمّن تقسيماً عالمياً للعمل، وبالتالي تبادل وتجارة دولية/ عالمية (أي أنّه كان نظاماً عالمياً بامتياز). حينها، لم تشكّل أوروبا في هذا النظام الشرقي المركزية أكثر من مجرد منطقة «حديثة النعمة، وهامشية (أو محيطية) لعملية مستمرة كان (مركزها) في آسيا»، واعتمدت (أي أوروبا) في نموّها، أساساً، على التجارة مع شرق المتوسط (لعبت الحملات الصليبية دوراً أساسياً فيها ــ ولولا غنى الشرق، لما كانت الحروب الصليبية، يجادل فرانك، وكذلك، لولا موقع مدينتي جَنَوة والبندقية الوسيط بين أوروبا والشرق، لما وصلت هذه المدن أصلاً إلى ما وصلت إليه من أهمية وثراء، ولربما ما كانت بدايات النظام العالمي الأوروبي المركزية لاحقاً في جنوب أوروبا). لكن، تضيف أبو لغد، فيما يمكن اعتباره المساهمة الأهم لعملها القيّم، أنّ الفشل «في بدء سرد القصة مبكراً بما فيه الكفاية، أدى إلى سيادة تفسير سببي مبتور ومشوّه لقصة صعود الغرب»، وبالتالي، يمكن القول أيضاً، سيادة سردية مزوّرة ومبتورة لتاريخ العالم ودور الغرب ودور الشرق فيه. فسرد قصة وتاريخ النظام العالمي، منذ عام ١٢٥٠، كما فعلت أبو لغد (وليس منذ بداية القرن السادس عشر مع صعود أوروبا كما فعل إيمانويل والرشتين، وكما هو سائد ومعتمد أكاديمياً)، لن يؤسّس لسردية بديلة للنظام العالمي ولتاريخ العالم الحديث فقط، ولن ينقض أسس السردية الغربية ومزاعم الاستثنائية الأوروبية أيضاً. بل ويمكن أن يؤسّس، اعتماداً على ذلك، للبدء باستشراف وتخيّل احتمالات مختلفة ومتعدّدة لمستقبل منطقتنا والعالم. الأهم، أنّ تاريخاً مختلفاً، ونظرة مختلفة للنظام العالمي، وللعالم، وللغرب والشرق ودورهما عمّا هو سائد بفعل الهيمنة الغربية (أي البدء بسرد قصة النظام العالمي قبل ٢٥٠ عاماً من التقليد السائد، أو منذ عام ١٢٥٠ بدل ١٥٠٠)، وإعادة النظر أيضاً في التأريخ السائد للنظام العالمي حتى بعد ذلك (أي بين أعوام ١٤٠٠ ــ ١٨٠٠)، كما فعل فرانك، ستفتح أيضاً الأفق أمام إمكانية تخيّل التحوّلات التاريخية، والمنظومات المفاهيمية السائدة، وحتى التحوّلات في طريقة العيش التي يمكن أن يمهّد لها أفول الهيمنة الغربية الجاري.

أهمية هذا النقاش والجدل برأينا، برغم غيابه في النقاش الأكاديمي الذي دار حينها بين أقطاب نظرية النظام العالمي هو النقلة التاريخية الشاملة، التي أعقبت إعادة تشكيل النظام العالمي، والأهم هو إمكانية أن نشهد نقلة تاريخية مشابهة تستتبع أو تترافق مع تراجع وأفول الهيمنة الغربية على النظام العالمي القائم الآن، خصوصاً أنّ سياق الصراع العالمي (الطبقي بجوهره بامتياز) هو صراع الجنوب – الشمال. فانتقال مركز النظام وإعادة تأسيسه وفق أسس المصالح الأوروبية ترافق مع نقلة شاملة على كل الصعد، ربما يكون من أهمّها تأثيراً ودوراً في صناعة واستدامة الهيمنة الغربية هو الهيمنة الأيديولوجية الأوروبية، ومن ضمنها ما يتعلق بإدراك وتخيّل وسرد تاريخ العالم الحديث ذاته، وأيضاً التفكير في الحاضر والمستقبل، وإدراك وتخيّل وسرد دور أوروبا والغرب في العالم وتاريخ العالم. لهذا السبب، كما يبدو، أفردَ كل منهما، قسماً أساسياً ومهما لنقد الأوروبية المركزية. لهذا، ليست القضية مجرد إعادة تغيير أو تنظيم استراتيجي لمنظومة الهيمنة في المركز الإمبريالي (أي ليس مجرد صعود قطب جديد وأفول قطب قديم أو حتى تشكل نظام متعدد الأقطاب) واستمرار النظام على حاله. هنا بالضبط يتضح أهمية المقارنة بين ما قبل القرن السادس عشر وما بعده من عمر النظام كونها تكشف لحد كبير جوهر وطبيعة التباين من جهة وطبيعة النظام العالمي، وتكشف بالتحديد أنه لا توجد طريقة واحدة ومحددة وفريدة فقط لتنظيم الأجزاء، وأيضا أنّ الأنظمة العالمية أيضاً ليست راكدة (جامدة)، بل تتطوّر وتتغيّر باستمرار. لهذا جادلنا أن ما يحصل ليس مجرد انتقال للقوة المهيمنة، كما رأينا سابقا، أو نظاما متعدد الأقطاب بالصيغة التقليدية.

تضع أبو لغد، في «ما قبل الهيمنة الغربية» الهدفين وترابطهما في فقرة شديدة البلاغة والتماسك، توجز فيها، في آن واحد، هدف دراستها وأيضاً تبعاتها المهمة: «لم يكن الاقتصاد العالمي في القرن الثالث عشر مدهشاً في حد ذاته

فقط، بل، ولأنه لم يحتوي على قوة مهيمنة واحدة، فإنّ ذلك يوفّر أيضاً تبايناً مهمّاً (للمقارنة) مع النظام العالمي الذي نشأ منه لاحقاً، أي النظام الذي أعادت أوروبا تشكيله لتحقيق أهدافها، وسيطرت عليه لفترة طويلة. فهذا التباين (المقارنة) يشير إلى أنّ خصائص الأنظمة العالمية غير ثابتة، فلا توجد طريقة واحدة فريدة لتنظيم الأجزاء. علاوة على ذلك، إنّ الأنظمة العالمية أيضاً ليست راكدة (جامدة)، بل تتطوّر وتتغيّر باستمرار. وفي هذه اللحظة من الزمن، يعيش النظام العالمي الذي نشأ في القرن السادس عشر مخاض التغيير. لهذا، فإنّ فهم النظام الذي سبقه قد يساعدنا في فهم ما ينتظرنا في المستقبل بشكل أفضل».

يجدر التأكيد قبل الدخول في التفاصيل، وقبل محاولة وضع الأحداث الدولية الراهنة والمباشرة في سياق هذا الإطار التاريخي، أن النقاش هنا يجري وفق منطق الزمن التاريخي أو الاجتماعي، كما يتوجب أن تكون النظرة للعمليات التاريخية الكبرى، وليس وفق الزمن الفردي أو الزمن بقياس السنوات، ويقررها المسارات التي يصنعها تراكم الأحداث – مثلا، حدث الحرب الروسية الأوكرانية أسست لمسارات عديدة بمجرد حدوثها، وتطور مسارات الحرب ذاتها لصالح أحد الطرفين (يبدو لصالح روسيا حتى الآن وفي الأفق المنظور) ستؤسس لتعميق أزمة النظام العالمي وتسارع تحولاته أكثر مما لو لم تحدث مثلا. لكن الأهم حتى الآن أن المؤشرات التي يمكن قياسها امبريقيا، أو بشكل ملموس، تشير الى مسار وافق التحول الكبير، أما الزمن الذي يحتاجه هذا التحول وتجلي عمقه فهي قضية تاريخية ستقررها المسارات والأحداث الدائرة (كما هو مثل حرب أوكرانيا أعلاه).

تراجع أميركا صعود الصين

حتى عام ٢٠٠٣، «كان من العبث الحديث عن تراجع (مكانة) الولايات المتحدة»، يقول ايمانويل والرشتين أحد مؤسسي نظرية «النظام العالمي». رغم ذلك، يضيف: «أصبح مثل هذا الاعتقاد الآن بمثابة قضية إجماع بين المنظرين وصانعي السياسة، ووسائل الإعلام. ما لم يتم تقديره حتى الآن (أي حين كتب النص عام ٢٠٠٧) بما فيه الكفاية هو الطبيعة المحددة لهذا التراجع ومتى بدأ تحديدا». أفول الهيمنة الأميركية أصبح فعلا «فكرة شائعة»، كما جاء، مثلا، في عدد صيف ٢٠١١ من مجلة الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية» التي جادلت أن الدولة التي «كان العالم يعتبرها قوة لا مثيل لها قبل بضع سنوات فقط، تعيش الآن حالة تراجع وتواجه احتمال التسوس/ التعفن النهائي.» الأفول أصبح فكرة شائعة لدرجة أن النشريات التي تعكس لحد كبير طريقة تفكير النخبة الأميركية الحاكمة كمجلة «فورين أفيرز» بدأت بنقاش، وحتى التشكيك بفكرة إمكانية «قرن أميركي آخر» ما بعد القرن العشرين، منذ عام ١٩٩٨.

لكن سردية النخبة، وأغلب الأفكار التي تتداولها نشريات «التيار العام»، رغم كل ذلك، تقف على رأسها. فسرديتها تستند للزمن الفردي، لا الاجتماعي، وبالكاد تبدأ مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى تسيء فهم ما حصل منذ التسعينات، وخصوصا معنى وتبعات سقوط الاتحاد السوفييتي. أما سردية الأفول، كما يرويها والرشتين ومنظري نظرية النظام العالمي، فتعتمد على منهجية بعيدة المدى تستدخل متغيرات ومؤشرات تدلل على التحولات العميقة في قراءة التاريخ. هكذا تقف سردية الأفول على قدميها. فالصعود الأميركي، حسب والرشتين بدأ في العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠) ووصل القمة في ١٩٤٥، في أعقاب الحرب العالمية الثانية. بعدها بدأ الأفول، وليس كما يعتبر مؤرخي التيار الأميركي السائد أن عام ١٩٤٥ كان بداية الصعود، لا الأفول كما يجادل والرشتين. هذا هو بالضبط ما قصدناه أعلاه بالفرق بين الرؤية بعيدة المدى التي تعتمد مفهوم الزمن التاريخي والرؤية السطحية التي تعتمد الأحداث السياسية المباشرة بطريقة لا تاريخية أو خارج السياق التاريخي الكبير. وفي سياق هذا الصعود، أي منذ ١٨٧٠، كان على أميركا أن تنافس الهيمنة البريطانية التي كانت تمر بمرحلة الأفول وتستبدلها، وأيضا منافسة القوة الجديدة الصاعدة حينها، ألمانيا، والتي تم تدميرها مرتين في سياق سعي الولايات المتحدة للهيمنة. نقاش الأفول، يتوجب أن يبدأ من عام ١٩٤٥، حين بدأت الولايات المتحدة تدريجيا تفقد الهامش الهائل الذي فصلها عن باقي الدول الأخرى في مجالات متعددة يعتبرها الباحثون في التاريخ والاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع مؤشرات القوة الكلية (اقتصادية، سياسية، أيديولوجية، ثقافية، معرفية، تقنية، بنية تحتية، علمية، الخ). أحد المؤشرات المهمة، والتي

يمكن قياسها إمبريقيا وتعتمد من قبل الباحثين في الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع، هو المؤشر الاقتصادي، وتحديدا المساهمة الأميركية في الإنتاج العالمي والذي مثل أحد عوامل التفوق الأميركي الأهم.

فما بين ١٩٦٠-٢٠١٩ تراجعت المساهمة الأميركية في الإنتاج العالمي تدريجيا من ٣٨,٢٪ الى ١٥,٧٩٪. طبعا ليس المقصود أن إنتاج الولايات المتحدة تراجع عما سبق أو كان في حالة تراجع مطلق، بل أنه تراجع نسبيا (نسبة الى نمو الإنتاج العالمي). فبينما نما الناتج المحلي الاجمالي الأميركي (GNP PPP) من ٥٢٠ مليار و٥٣١ مليون دولار عام ١٩٦٠ الى ٢١ تريليون و٤٢٧ مليار دولار عام ٢٠١٩، نما الناتج العالمي من تريليون و٣٦٠ مليار الى ١٣٥ تريليون و٦٧٠ مليار دولار سنويا – أي أن الناتج المحلي الاجمالي الأميركي زاد بنسبة ٤١١٦٪ خلال ستين عاما، فيما كانت الزيادة في الناتج الإجمالي العالمي ٩٩٧٨٪، أو أكثر من ضعف الزيادة في الناتج الأميركي، خلال نفس الفترة. هذا تراجع لا يمكن للدولة المهيمنة أن تستوعبه بدون تبعات كبيرة على مكانتها.

وفيما تُستخدم مساهمة أي دولة في الإنتاج العالمي كمقياس ومؤشر على مكانتها أو هيمنتها في المنظومة الدولية، وبالتالي هيمنة الإمبراطورية الأميركية في، وعلى، العالم، فإن أهمية هذا المؤشر أنه لا يعكس فقط فقدان الولايات المتحدة للهامش الهائل الذي فصلها اقتصاديا عن باقي دول العالم وأسس لهيمنتها، بل يشير كذلك حتى لخسارتها لمجرد التفوق في هذا المجال. فبيانات البنك الدولي تشير الى أن مساهمة الصين في الإنتاج العالمي تجاوزت المساهمة الأميركية منذ عام ٢٠١٨، بنسبة ١٦,٨٪ - ١٥,٩٢٪ وفي ٢٠١٩ بنسبة ١٧,٢٩٪ - ١٥,٧٩٪ لصالح الصين (طبعا وفق مقياس تعادل القوة الشرائية).

لكن العامل الاقتصادي هو مجرد متغير واحد من عشرات معتمدة أكاديميا لقياس القوة الكلية لدول المنظومة الدولية. أحد هذه العوامل التي تم لفت الانتباه إليه كثيرا مؤخرا هو حال البنية التحتية في الولايات المتحدة (مطارات، جسور، موانئ، طرق، مستشفيات، الخ). السبب الأساسي لذلك كان حصول البنية التحتية على تقدير (D+) من قبل «جمعية المهندسين المدنيين الأميركيين» منذ عام ٢٠١٣ وحتى ٢٠١٧ - ارتفع هذا التقدير قليلا بعد التحذير منه ونتيجة للإنفاق الهائل على البنية التحتية الى (C-).

واستشراف استمرار وتعمق هذا التراجع يمكن قياسه بمقارنة بسيطة مع الصين. فمن ضمن أفضل عشر كليات هندسة في العالم، يوجد أربعة في الصين وأربعة في الولايات المتحدة. وفي حقول العلوم، التكنولوجيا، الهندسة، والرياضيات، التي تعتبر مجالات الكفاءة الأساسية التي تشكل قوة الدفع للتقدم في القطاعات الأسرع نمواً في الاقتصادات الحديثة، يتخرج سنوياً من الجامعات الصينية أكثر من أربعة أضعاف عدد الخريجين في الولايات المتحدة (١.٣ مليون مقابل ٣٠٠ ألف). وفي كل عام من فترة إدارة أوباما (منذ ٢٠٠٨)، منحت الجامعات الصينية شهادات دكتوراه في تلك مجالات الكفاءة الأساسية (العلوم، التكنولوجيا، الهندسة، والرياضيات) أكثر مما منحت الجامعات الأميركية مجتمعة.

المدهش أيضا في البيانات المتوفرة للمقارنة هو سرعة صعود الصين اقتصادياً (معدل النمو في الصين خلال المرحلة السابقة كان ثلاثة أضعاف نظيره في أميركا) وكذلك تجاوُزْ حجم الاقتصاد الصيني نظيره الأميركي. «فحين أصبح ريغان رئيساً في عام ١٩٨١، كان حجم الاقتصاد الصيني يعادل ١٠٪ فقط من حجم الاقتصاد الأميركي. لكن في عام ٢٠١٤ أكد البنك الدولي احتلال الصين للموقع الأول اقتصادياً على المستوى الكوني. ومع نهاية عام ٢٠١٦ كان الناتج المحلي الإجمالي الصيني (GDP) قد وصل إلى ٢١ تريليون دولار سنوياً بقياس «تعادل القوة الشرائية (Purchasing Power Parity)»، الأكثر اعتماداً لدى الأكاديميين، فيما كان الناتج المحلي الأميركي لذات العام هو ١٨.٥ تريليون دولار. وكل ذلك تحقق في فترة قياسية وغير مسبوقة في التاريخ، كما أشار غراهام أليسون في «فخ ثوسيديدس»، وكما أشار من قبله تقرير الاستخبارات الأميركية «ميول عالمية ٢٠٣٠: عوالم بديلة» الصادر في نهاية عام ٢٠١٢. فلقد احتاجت «بريطانيا إلى ١٥٥ عاماً لمضاعفة ناتجها المحلي الفردي حين كان عدد سكانها ٩ ملايين نسمة فقط. واحتاجت أميركا وألمانيا ما بين ٣٠-٦٠ عاماً مع عدة ملايين من

السكان. أما الهند والصين فهما تقومان بذلك على نطاق ووتيرة غير مسبوقة: وتيرة غير مسبوقة: يقومان بذلك بمئة ضعف سكان بريطانيا في عُشْرِ (١٠٪) المدة الزمنية. مقارنة أليسون في فصل «صعود الصين» في كتابه «مقدرين للحرب»، بين الولايات المتحدة والصين بين عامي ١٩٨٠ و٢٠١٥ مذهلة أيضا وتؤشر لحجم التغيرات. ليس فقط أن الصين تحتل الآن المرتبة الأولى في كل العشرين مؤشر اقتصادي المعتمد للمقارنة بلا استثناء، بل أن سرعة حدوث ذلك أيضاً مذهلة: في ١٩٨٠، مثلاً، كان حجم الصادرات الصينية يساوي ٨٪ فقط من حجم الصادرات الأميركية، لكنها في عام ٢٠١٥ أصبحت ١٥١٪، وفي العام نفسه (١٩٨٠) كان حجم الاحتياطي الصيني يساوي ١٦٪ فقط من حجم الاحتياطي الأميركي، أما في عام ٢٠١٥ فلقد أصبح ٣١٤٠٪ (ص:٦). هذا مختصر بعض قصة الصعود الصيني والتراجع الأميركي والتي كانت في خلفية استراتيجية التوجه نحو آسيا (Asia Pivot) منذ عام ٢٠١١ في عهد أوباما لمواجهة التحدي الصيني.

الولايات المتحدة والصين: الناتج الإجمالي المحلي كنسبة من الناتج الإجمالي العالمي

السنة	العالم	الولايات المتحدة		الصين	
1960	1,359,619,245,233	520,531,181,568	%38.2		
1970	2,896,585,460,816	1,024,800,000,000	%35.3		
1980	12,264,412.963,496	2,767,500,000,000	%22.56		
1990	٢٩٢٩٨٦٤٧٤٢٢٣٠٦,٥	٥,٩٦٣,١٤٤,٠٠٠,٠٠٠	%20.35	١,١١٥,١٣٣,١٥٨,٢٥٢,٣	%3.8
2000	٤٨٩٣٧٢٦٠٦٦٢٣٢٠,٧	١٠,٢٥٢,٣٤٥,٤٦٤,٠٠٠	%20.9	٣,٦٨٧,٥٧٤,٢٣٩,٨٦١,٦٩	%7.35
2010	٨٩٢٧٦٢٣٩٧٣٥٢٣٠,٩	١٤,٩٩٢,٠٥٢,٧٢٧,٠٠٠	%16.79	١٢,٣٧٨,٧٩٩,١٩٨,٩٩١,٣	%13.86
2018	١٢٩٢٥٠٦٦٩٦٤٥٦٦٦	٢٠,٥٨٠,٢٢٢,٩٩٩,٩٩٩,٩	%15.92	٢١,٧٣٠,٦٨٤,٦٧٧,٩٠٨,٨	%16.8
2019	١٣٥٦٦٩٥٤٥١٠٨١٨١	٢١,٤٢٧,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠,١	%15.79	٢٣,٤٦٠,١٧٠,١٤٢,٩٨٧,٦	%17.29

لكن المدهش حقا في تجربة صعود الصين والذي ينبغي التشديد عليه هو قصة القضاء على الفقر. فوفق تقرير البنك الدولي "أربعة عقود من الحد من الفقر» الصادر عام ٢٠٢٢، فإن «النمو الاقتصادي في الصين والحد من الفقر على مدى الأربعين عامًا الماضية لم يسبق له مثيل في التاريخ من حيث السرعة والحجم. فما بين عامي ١٩٧٨ و ٢٠١٩، انخفضت نسبة الأشخاص الذين يعيشون في فقر - وفقًا للمعيار الوطني لعام ٢٠١٠ - من ٩٧،٥٪ إلى ٦،. ٪ من سكان الريف» . فمن بين ٧٧٠ مليون شخص فقير يسكنون الريف انخفض عدد الفقراء الى ٥،٥ مليون فقير خلال أربعين عاما، أي تم انتشال ٧٦٥ مليون شخص من براثن الفقر في الريف، بمعدل ١٩ مليون فقير كل عام. أما على المستوى العام، فلقد تم انتشال ٨٠٠ مليون انسان

من براثن الفقر والفقر المدقع خلال أربعين عاما. إضافة لذلك، لم تشهد الصين تراجع غير مسبوق ومدهش في معدلات وحالات الفقر، كما يشير تقرير البنك الدولي، بل شهدت في ذات الوقت «تحسينات جوهرية في مقاييس أخرى للرفاهية»، فمثلا ارتفع متوسط العمر المتوقع عند الولادة من ٦٦ عاما سنة ١٩٧٨ الى ٧٧ عاما بحلول ٢٠١٩، ونتيجة لتحسن نوعي في نتائج السياسات الصحية المتبعة انخفض معدل وفيات الأطفال الرضع من ٥٢ طفل لكل ألف حالة ولادة عام ١٩٧٨ الى ٦,٦ طفل لكل ألف عام ٢٠١٩. الأرقام الخاصة بالتعليم، وغيره من مجالات الحياة، تشير أيضا الى تحسن غير مسبوق. اللافت أن هذا النموذج الذي اعترف البنك الدولي في تقريره بأنه «غير مسبوق في التاريخ»، لا يتم التوصية به للدول النامية مطلقا، بل يستمر البنك الدولي في الإصرار على النموذج النيوليبرالي الذي لم ينتج حالة نجاح واحدة يمكن الاستشهاد بها من ضمن ما يقارب ١٢٠ حالة اتبعت النيوليبرالية.

هذا ملخص مختصر للسياقين العالمي الكبير وبعيد المدى، وأيضا المباشر وقصير المدى من أجل فهم عميق للأحداث الدائرة على المستوى العالمي والتي سنلخص أهمها تباعا.

الراهن العالمي

روسيا في اوكرانيا

أغلب تقديرات المراقبين والخبراء حول الحرب في أوكرانيا، مسرح المواجهة الشرسة ومتعددة الجبهات بين الولايات المتحدة وحلفاءها في الناتو وخارجه من جهة وروسيا وحلفاءها (خصوصا الصين) من جهة أخرى تشير ليس فقط إلى احتمالية استمرار المواجهة في المدى المنظور، بل وتجمع كذلك على أنها ربما ستطول أكثر مما اعتقد البعض في البداية. فحتى الكرملين أشار في نهاية آذار إلى توقع بأن تطول المواجهة بين «روسيا والغرب»، كما وصفها الناطق باسمه. اللافت في تصريح الكرملين هو توصيف الحرب بالهجينة وأنها بين الغرب (كله) وروسيا. في الجانب الأميركي، أشار استطلاع لجملة من الخبراء إلى احتمال استمرار المواجهة في اوكرانيا لسنوات قادمة، بعضهم حتى قدرها بعشر سنوات. في كل الأحوال، التطورات المتعددة المرتبطة بالمواجهة الشرسة الدائرة في أوكرانيا منذ عام خلال الأشهر القليلة الماضية تفيد ليس فقط بتضرر الهيمنة الأميركية فقط، بل وتجلي ذلك بوضوح في الملف الاوكراني. فبعد عام على المواجهة يتضح أن هناك تحولا بنيويا في طبيعة العلاقات الدولية. فبرغم الهجمة الأميركية لمحاولة استعادة الدور والتأثير التقليدي (مثلا عقد القمة الثانية للديمقراطية، ولاحقا قمة «مجموعة السبع» والاستمرار في الضغط على الدول الأضعف للاصطفاف خلف المحور الغربي، وأيضا تفجير أنابيب نورد ستريم من ضمن أشياء أخرى، كما يوثق سيمور هيرش في بحث استقصائي) أشار بعض المختصين إلى ظهور ما سموه «التقاطعات المتقلبة» كمعيار جديد يؤثر في سياسة الدول والعلاقات الدولية بديلا لـ «التحالفات الثابتة» التي سادت سابقا، وعزو ذلك إلى تنامي التأثير الصيني الذي وفر مجالا للمناورة أمام هذه الدول في مقابل الهيمنة الأميركية. أصبح من المؤكد الآن أن مجريات المواجهة الهجينة الدائرة في أوكرانيا بين روسيا والغرب ستحدد معالم النظام العالمي قيد التشكل إلى حد بعيد، ومن الواضح حتى الآن، ووفق ما أشارت وثائق البنتاغون التي تم تسريبها أن السردية الأميركية عن الحرب ومجريات الحرب هي ليست أكثر من أداة أخرى في الحرب، وأن الوقائع الميدانية والحقائق تتعارض إلى حد كبير مع السردية والرغبات الأميركية، هذا عدى عن التحالف الواضح بين الحكومات والطبقات الحاكمة في الغرب من جهة ووسائل الإعلام الغربية. لكن، الحرب لا تجري في الميدان المباشر برغم التدخل الأميركي الهائل ماليا وعسكريا في مجريات الميدان، بل تجري وتتأثر بشكل كبير بأحداث عديدة أخرى شهدتها الساحة الدولية خلال الأشهر المنصرمة.

الصين: شي جين بينغ في موسكو

في نهاية آذار، وتحديدا بعد أقل من أسبوع من لجوء الحلف الغربي إلى استخدام محكمة الجنايات الدولية كأداة وسلاح جديد في الحرب باستهداف الرئيس بوتين، وصل الرئيس الصيني شي جين بينغ إلى موسكو في زيارة ذات أبعاد استراتيجية بسبب توقيتها وشكلها ونتائجها. فلم يتم فقط التأكيد بين الرئيسين، في زيارة الدولة، على متانة العلاقات التي تطورت بشكل ملحوظ أثناء المواجهة في

أوكرانيا، بل وتم الإعلان عن تمتين هذه العلاقة والتوقيع على وثائق «التعاون الإستراتيجي» بين البلدين وبالتالي الإعلان عن انتقال العلاقة إلى مستويات جديدة ودخولها مرحلة جديدة من التعاون في مستويات عديدة (السياسية، الاقتصادية، العسكرية). وعلى ذات القدر من الأهمية، أشار الرئيسان أثناء المؤتمر الصحفي إلى أن تبعات التعاون الوثيق والاستراتيجي بين البلدين ستكون أبعد من البلدين، أو كما قال الرئيس الصيني أن العلاقة تجاوزت كونها ثنائية «وأصبحت ذات أهمية كبيرة على مستوى عالمي ولمصير البشرية». في ذات الوقت، كانت الإشارة إلى أفول عالم القطب الواحد (الأميركي) وتشكل عالم متعدد الأقطاب واضحة وصريحة بالإشارة الى أن البلدين «يبنيان عالما متعدد الأقطاب» وأن تعاونهما «سيساهم في انتعاش الاقتصاد العالمي، وتحسين نظام الحوكمة العالمية وتقديم مساهمة كبيرة في الأمن الغذائي وأمن الطاقة العالميين».

لكن، وبرغم طرح المبادرة الصينية لإنهاء الحرب في أوكرانيا، وبرغم عدم مشاركة الصين عسكريا في الميدان إلى جانب الحليف الروسي (الذي يبدو من الوثائق الأميركية المسربة أنه لا يحتاج مثل هذا التدخل)، إلا أن اصطفاف الصين بكل وزنها الهائل وإمكانياتها ومقدراتها وإعلانها لتوافقها الإستراتيجي مع روسيا هو من ضمن الصراع على صيغة النظام العالمي قيد التشكيل مع المعسكر الغربي كله، وبالتالي سيكون له تأثيراته الهائلة بلا أدنى شك أبعد من ميدان المعركة المباشر في أوكرانيا واستمرار له. التموضع الصيني والروسي (وأيضا حلفاءهم المتعددين) ليس فقط واضح في مقابل الهيمنة الغربية، ولكن يعمل ويجد على تقويضها والتأثير قدر المستطاع في صيغة النظام الدولي قيد التشكل.

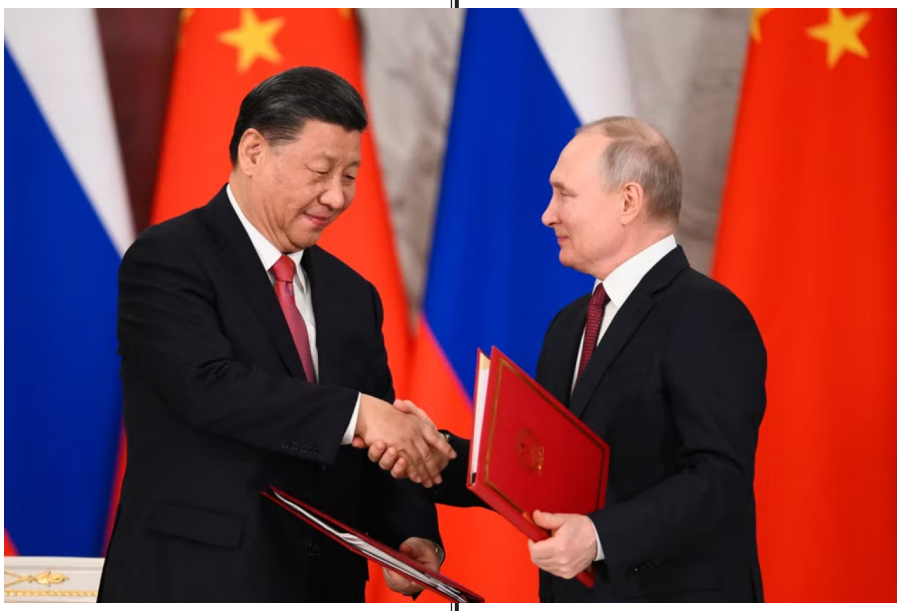

في الملف التايواني، أثبتت الصين جدية وحزما أقلقت الحكومة التايوانية، بعد اللقاء الذي حصل بين رئيس مجلس النواب (الشخصية الثالثة في ترتيب السلطة في الولايات المتحدة) ورئيسة تايوان تساي إينج وين عبر مناورات عسكرية ضخمة وصفتها الصين بأنها «إنذار جدي» للجزيرة (تايوان)، والتهديد بتضرر العلاقة الأميركية الصينية نتيجة لذلك اللقاء الذي اعتبرته مسا بسياسة الصين الواحدة. بعدها بأيام صدر تصريحان لافتان عن القيادة الصينية، الأول من الرئيس بينغ والذي دعا فيه الجيش الشعبي الصيني إلى "تعزيز التدريب على قتال فعلي»، مضيفا «أن الجيش يجب أن يدافع عن سيادة أراضينا وكذلك حقوق ومصالح الصين، ويحافظ على الاستقرار الشامل للجوار». أعقب ذلك تصريحات لمسؤول صيني كبير نفى فيه تقديم الصين «أي تعهد بعدم استخدام القوة» في الملف التايواني وتأكيده أن كل الخيارات مفتوحة أمام الصين. توقف رئيسة تايوان في الولايات المتحدة في طريقها إلى أميركا الوسطى قادت لتوتر أكبر بين الصين وتايوان من جهة وبين الصين والولايات المتحدة من جهة أخرى. الزيارة التي لم تحقق فعليا أي مكاسب للولايات المتحدة أو لتايوان قادت الى توتر ينذر بتحويل تايوان إلى بؤرة صراع ساخنة في المنطقة، وهو ما يدفع للتساؤل حول حسابات الربح والخسارة عند الطرف التايواني التي بدأت بخسارة هندوراس بعد خسارة العلاقات مع نيكاراغوا، السلفادور، جمهورية الدومينكان، بنما، وكوستاريكا لصالح الصين ولصالح الاعتراف بوحدة الأراضي الصينية في أعقاب سلسلة من الاتفاقات حول مشاريع مشتركة مع الصين. السؤال هو ما هي مكاسب زيارة تساي إلى غواتيمالا وبليز

في مقابل كل ذلك، خصوصا أنها قد لا تكون علاقات دائمة ومستدامة كون تايوان لا تستطيع أن تنافس الصين في القارة الأميركية اللاتينية. فحتى نائبة الرئيس الأميركي في زيارتها لإفريقيا مؤخرا أقرت بخسارة المنافسة لصالح الصين في القارة السمراء: «بيجين تسبقنا بخطوة في افريقيا».

الإستراتيجية الروسية الجديدة ونشر السلاح النووي في بيلاروسيا

في الجانب الروسي حصل تطوران مهمين يتوجب الإشارة لهما لارتباطهما بميدان المعركة من جهة والصراع الروسي مع الغرب عموما. الأول كان إقرار «استراتيجية روسية جديدة للسياسة الخارجية»، والتي اعتبرت أن واشنطن هي «التهديد العالمي الأكبر». هذه الإستراتيجية الجديدة التي تأتي نتيجة لقراءة أعضاء مجلس الأمن القومي الروسي للتغيرات الدولية تنهي الإستراتيجية السابقة التي نظمت مبادئ ومهام وأولويات السياسة الخارجية الروسية. أهمية الاستراتيجية الجديدة، كما رآها وزير الخارجية لافروف على الأقل، تتمثل في «ايلائها أهمية كبيرة لنهاية هيمنة الغرب على العالم» وإنهاء احتكار الغرب لأطر السياسة الدولية استنادا إلى ما وصفه بـ«التطورات الثورية في الشؤون الدولية». وبالإضافة إلى توصيف الولايات المتحدة «كمصدر أساسي للسياسة المعادية لروسيا» وأيضا «أكبر تهديد يواجه العالم وتطور البشرية»، أكدت الاستراتيجية الجديدة على استعداد روسيا «لاستخدام الجيش لصد ومنع أي هجوم مسلح ضدها أو ضد أي من حلفائها». وعدى عن التأكيد على التنسيق الشامل مع الصين، تنص الوثيقة الجديدة على تبني مشروع روسي «في القرن الواحد والعشرين هدفه تحويل أوراسيا الى مساحة واحدة». الجانب المهم الآخر في الوثيقة والذي يؤكد على عمق الصراع الدائر هو النص المتعلق بالهيمنة الأميركية حيث تشير الوثيقة وبوضوح إلى أنه «سيكون القضاء على أساسيات الهيمنة من جانب الولايات المتحدة والدول الأخرى غير الصديقة في الشؤون الدولية

إحدى أولويات روسيا». هذه الإستراتيجية تؤكد ليس فقط عمق التحولات الدولية التي أشارت إليها الوثيقة وافترضت وتطلبت تحديث الاستراتيجية القديمة، بل إلى عمق التحولات في السياسة الروسية ذاتها.

التطور الثاني هو الاتفاق الروسي مع بيلاروسيا على نشر أسلحة نووية تكتيكية على أراضي بيلاروسيا. هذه الخطوة تمثل ردا روسيا وبيلاروسيا مزدوجا وقويا أيضا على المعسكر الغربي. فبيلاروسيا التي تتعرض منذ سنين لضغوط وعقوبات غربية قاسية وتدخل مستمر في شؤونها الداخلية بهدف الضغط عليها تحديدا من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا، بالإضافة لتعزيز قدرات جيرانها من حلفاء الغرب عسكريا وبالتالي تهديدها جديا، ترى في انتشار السلاح الإستراتيجي الروسي على أراضيها ردا وردعا للغرب من جهة وحماية من جهة أخرى. أما روسيا فإنها بهذه الخطوة تكون قد وضعت سلاحها النووي على أبواب الإتحاد الأوروبي، أحد أهم مناطق النفوذ الأميركي، كرد قوي على التصعيد الغربي، وخصوصا الحلفاء الاوربيون للولايات المتحدة ودعمهم المتواصل لأوكرانيا.

الولايات المتحدة

ربما يكون الحدث الأهم في الولايات المتحدة مؤخرا هو تسريب وثائق وزارة الدفاع، وأغلبها مصدره دائرة الاستخبارات التابعة لهيئة الأركان. الوثائق على الأغلب حقيقية وفق تقدير العديد من الخبراء، لكن الفارق بينها وبين وثائق سابقة أن بعضها يحتوي على تقديرات استخباراتية يفرض قراءتها بحذر. في الجانب الآخر، وبسبب طبيعة ردود وسائل الإعلام الأميركية، عمد بعض الخبراء إلى التحذير من عدم التعاطي بحذر مع بعض محتويات الوثائق كونها حقائق مغلفة بمعلومات غير دقيقة قد يكون الهدف منها تضليل بعض الخصوم، كروسيا والصين وإيران وكوريا الشمالية.

لكن الوثائق تنقض الى حد

بعيد السردية والمعلومات التي يتم تعميمها بخصوص الملف الاوكراني. فالصراع ليس اوكراني -روسي، كما يتم الترويج له، بل غربي بقيادة الولايات المتحدة ضد روسيا، وكما يبدو فإن الدعم الغربي (والصهيوني الذي تكشف أنه يدعم أوكرانيا بأسلحة فتاكة تتضمن بطاريات صواريخ باراك ٨ للدفاع الجوي وصواريخ موجهة ضد الدروع) ليس محصورا بالدعم المالي والعسكري لأوكرانيا، بل هناك حضور ميداني وتورط كبير، أقله على شكل قوات خاصة وما يسمى «قوات المتعاقدين» الذين لا تشملهم السجلات الرسمية. وفيما يخص الميدان، يتضح من التسريبات أن وسائل الإعلام تنقل السردية الرسمية للحكومة بدون أي تشكيك، وما كشفته الوثائق بخصوص مجريات المعركة يكشف أن الخسائر الأوكرانية أكبر بكثير (سبعة أضعاف في بعض التقديرات) مما يتم الاعتراف به من جهة، وأن هناك إحباط، وحتى يأس أميركي وغربي من إمكانية تحقيق الأهداف المتمثلة بهزيمة ميدانية شاملة لروسيا – مثلا، الإعداد لهجوم الربيع الذي طال الحديث عنه يشي بأن التوقعات الاستخباراتية للبنتاغون تتعارض مع التفاؤل المعلن إعلاميا عن إمكانية تحقيق الحملة أهداف كبيرة. أغلب ما يتم الترويج له عن صلابة (وحتى بطولات) وإصرار اوكراني في الإعلام هو ببساطة ترويج لسردية حربية تخدم الطرف الغربي في الصراع، ليس أكثر. وفي أعقاب التسريب، نشر موقع صحيفة «واشنطن بوست» تقريرا بعنوان «يأس/ كآبة الولايات المتحدة من مسار الحرب في أوكرانيا»، تشير فيه إلى يأس المسؤولين من احتمال تحقيق أي انتصار عسكري في أوكرانيا في المدى المنظور وحتى تصفه «بالمستحيل». واستتباعا للوثائق، يفضح هذا التقرير مشكلة القاعدة الصناعية الغربية والضغوط التي تتعرض لها من أجل الوفاء بالحاجة العسكرية في الميدان الاوكراني، متوقعة تراجعها الملموس.

والولايات المتحدة، كما تشير الوثائق، تتجسس حتى على أقرب حلفاءها (أوكرانيا، كوريا الجنوبية، والكيان الصهيوني، وحتى المكسيك)، وهذا قاد لقلق من انعكاساته على السياسة الخارجية (كما حصل في تصريحات الرئيس المكسيكي الشديدة ضد الولايات المتحدة). تبعات التسريبات بالمحصلة، على الأقل حسب التصريحات الأميركية، أضرت بالجهود الأميركية في ميادين عدة (أهمها أوكرانيا)، وأضرت بالعلاقات الخارجية للولايات المتحدة. لكنها في نفس الوقت أضرت بمصداقية وسائل الإعلام التي لم تتبنى السردية الحكومية وروجت لها قبل التسريب، ولكنها استمرت في تبني الرؤية الحكومية حتى فيما يخص التسريب. فلقد استمرت وسائل الإعلام، حتى مع التسريب وفي تعليقها عليه، بالدفاع عن حق الحكومة في السرية (أو في الكذب على المواطنين فيما يخص أهم الأحداث العالمية ومدى تورطها فيها).

الأحداث الأخرى المهمة التي جرت في الأشهر المنصرمة وشكلت عناوين الأخبار تمثلت في زيارة الرئيس الفرنسي للصين، توقف رئيسة تايوان في الولايات المتحدة ولقاءها مع رئيس مجلس النواب، وأيضا زيارة الرئيس البرازيلي للصين وتصريحاته التي انتقدتها الولايات المتحدة. فزيارة الرئيس الفرنسي للصين كشفت محاولات فرنسية ليس فقط لمحاولة تمايز فرنسا عن باقي الحلفاء الغربيين في ملفات عدة في محاولة لخدمة مصالح رأس المال الفرنسي المترابطة مع الصين. لكن الأيام فقط كفيلة بكشف مدى قدرة أي من الحلفاء الغربيين في التمايز عن السياسة والخط الأميركي، فبعضهم كألمانيا واليابان هم حرفيا مستعمرات أميركية فيها قواعد عسكرية وقوات أميركية كبيرة. لكن القلق الفرنسي يبدو أنه ناتج من إدراك عدم قدرة الحلف الغربي على حسم المعركة لصالحه في النهاية وتبعات ذلك والثمن الذي ستدفعه فرنسا مستقبلا بسبب عضويتها في هذا التحالف – كان هناك دائما محاولات فرنسية للتمايز عن الحلف الغربي منذ عهد ديغول، لكنها كانت دائما تنتهي بالخضوع للسياسة الأميركية والتفاف رأس المال الفرنسي والطبقة الحاكمة مع الحليف الأكبر في أميركا. فقط الأيام، مرة أخرى، ستكشف إن كانت التحولات التي حصلت في المرحلة السابقة كفيلة بأن تعطي نتيجة مغايرة هذه المرة. لكن الارتباط البنيوي لرأس المال الأوروبي يحد كثيرا من الخيارات المتاحة. وطالما أن أوروبا موحدة كخيار قوة عالمية ثالثة (مع الصين والولايات المتحدة) غير متاح وبعيد الاحتمال فإن دول أوروبا منفردة ستخسر بشكل كبير من التحولات الجارية وهو ما يبدو أن الرئيس الفرنسي يحاول الحد منه (أساسا بسبب الرفض الأميركي الذي

يفضل أوروبا تابعة، وبسبب التباينات الواضحة الأوروبية بين أطراف في أوروبا الغربية كبريطانيا في مقابل المانيا وفرنسا من جهة، وبين غرب وشرق أوروبا ككتل من جهة أخرى، حيث تبعية شرق أوروبا للولايات المتحدة تبدو متجذرة وغير قابلة للفكاك)

زيارة الرئيس البرازيلي، لولا دا سيلفا، الأولى بعد تسلمه منصب الرئاسة كانت للولايات المتحدة، لكن الزيارة اللاحقة للصين لم تكن محاولة لخلق توازن كما ظن البعض بين القطبين الدوليين، بل كان واضحا انحياز الرئيس البرازيلي إلى كل من الصين وروسيا في الصراع الدائر فيما يخص ملفي أوكرانيا وتايوان، وهو ما قاد لانتقاد أميركي حاد. البرازيل، طبعا، هي القوة الأهم في أميركا اللاتينية، وأحد القوى المهمة على المسرح الدولي الأكبر، وبالتالي فإن لانحيازها وزن وتبعات مهمة، لكنها تكشف مرة أخرى مدى تضرر الهيمنة الأميركية من مجريات الأحداث العالمية في المرحلة السابقة، وإلا لما كان بإمكان البرازيل اتخاذ هذه الخطوة، وتكشف أيضا إمكانية المناورة المتاحة نتيجة تغير بنية العلاقات الدولية، كما أسلفنا. أما «توقف» رئيسة تايوان في الولايات المتحدة في طريقها إلى أميركا اللاتينية، ولقاءها مع رئيس مجلس النواب وزعيم الجمهوريين (المنصب الثالث في الأهمية في الولايات المتحدة) فلقد تم نقاشها بالتفصيل في باب الصين أعلاه.

محليا، يمكن لفت النظر إلى قضيتين مهمتين في الملف الأميركي. ففي مقابل ازدياد الثقة التي تعبر عنه السياسات والتصريحات الصينية والروسية، شهدت الولايات المتحدة في الشهور المنصرمة عدة أزمات بعضها استمرار للسابق وبعضها الآخر جديد، ورغم أنها ليست جميعا مرتبطة بالحرب الأوكرانية إلا أنها ستؤثر وتتأثر فيها في النهاية. اقتصاديا تواجه الولايات المتحدة، كما المعسكر الغربي عموما، حالة من التضخم دفعت العديد من الخبراء إلى توقع استمراره الى عام ٢٠٢٤ والتحذير من احتمالات الركود. ففيما رفع الاحتياطي الفيدرالي أسعار الفائدة عدة مرات (٤،٧٤ نقطة حتى الآن) في محاولة لكبح التضخم الذي بلغ العام الماضي مستويات غير مسبوقة منذ عقود. لكن هذه السياسة فشلت في احتواء ارتفاع أسعار السلع حيث وصل تباطؤ ارتفاع أسعار السلع إلى ٦٪ على أساس سنوي، وهي أعلى من (٢٪) الهدف الذي أعلن عنه الاحتياطي الفيدرالي. وكأن ذلك لا يكفي، واجهت الولايات الأميركية أيضا أزمة انهيار البنوك (سيليكون فالي و بنك سيغنيتشر)، وتبعها بنك «كريدي سويس» في سويسرا. هذا الانهيار أدى إلى تراجع كبير في ثقة المستثمرين في القطاع المصرفي الذي شهد انهيارا في أسعار أسهمه ووصل القلق حد التخوف من حدوث أزمة مالية كبيرة وشاملة في هذا القطاع الأساسي. ورغم كل الإجراءات والضمانات التي قدمتها الحكومة الأميركية للمستثمرين والمواطنين حول ضمان الحكومة الفيدرالية لأموالهم (في حدود القانون الذي ينظم ذلك)، لم تنته الأزمة ولا القلق من انضمام بنوك أخرى لاحقا للانهيار – هذا يبدو ما قصده الرئيس الأميركي حين أشار إلى أن الأزمة لم تنته بعد.

في الجانب المحلي أيضا، تم وللمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة توجيه اتهامات قضائية بحق رئيس سابق، فلقد تم توجيه ٣٤ تهمة بحق دونالد ترامب. هذه الاتهامات التي تأتي على أعتاب انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية التي يمثل ترامب صاحب الحظ الأوفر وبفارق هائل فيها للحصول على ترشيح الحزب الجمهوري لن تكون بلا تبعات، خصوصا إن كان لها تأثير واضح على الانتخابات. فمنذ الأزمة التي عصفت الانتخابات وإصرار حتى عدد من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب الجمهوريين برفض الاعتراف بنتائجها أصابت الشرعية الرئاسية بضرر غير مسبوق في الانتخابات الأميركية. بالإضافة للتبعات على شرعية الرئيس، فإن تبعات التوتر بين قطاعات الشعب الأميركي سترتفع أكثر وقد تؤثر على شرعية أي رئيس مستقبلي وهو ما سيحد من قدرة أي إدارة مستقبلية (خصوصا إذا كانت ديمقراطية) من التنافس الاستراتيجي مع الخصوم الأشداء الذين تواجههم في العالم.

خاتمة

فيما لا يمكن إنكار أن الولايات المتحدة قوة كبرى وعظمى بمقدرات وإمكانات هائلة وأنها ستبقى كذلك وإن بمكانة مختلفة في المنظومة الدولية، لا يمكن في المقابل إنكار الضرر الذي أصاب الهيمنة الأميركية نتيجة صعود قوى منافسة جدية (الصين وروسيا عالميا وقوى إقليمية في كل قارة تقريبا) وأيضا نتيجة التحولات التي حصلت في

أغلب المجالات وقادت لتراجع التفوق الأميركي وخسارة أميركا لهوامش هائلة فصلتها عن باقي دول العالم اقتصاديا، سياسيا، عسكريا، وحتى أيديولوجيا. ما لا يمكن إنكاره أيضا أن الحرب في أوكرانيا كشفت الفارق بين الصورة السائدة عن قوة التحالف الغربي وحقيقة هذه القوة التي ليس فقط لم تستطع مواجهة وهزيمة روسيا منفردة كما قد افترض الكثيرين (رغم علاقات روسيا المتشعبة في مجالات عدة إلا أنها تبقى وحدها في الميدان)، بل ويبدو أن خسارتها تصبح أكثر احتمالا يوما بعد يوم.

هذا يعني أن أفول العالم القديم والنظام الدولي الذي ساد لعقود وتشكل عالم جديد بمواصفات يتضح باستمرار أنها لن تكون مجرد استمرار للسابق. لكن هذا صيغة هذا النظام ستحددها نتيجة الصراعات الدولية والإقليمية والمحلية الدائرة في أغلب مناطق العالم، وما سيحدد مكان ومكانة أي قوة في المستقبل هو مدى التقاطها لهذه الحقيقة ومدى انخراطها والعمل على التأثير ليصبح لها مكان ومكانة ودور في عالم المستقبل. هنا بالضبط يتوجب أن يتمحور الاهتمام العربي، حول كيفية الانخراط في تشكيل هذا العالم الجديد والتأثير فيه حتى يكون لنا مكان ومكانة في العالم في المستقبل. ومن لا يلتقط هذه اللحظة التاريخية وأهميتها سيتجاوزه الحدث وسيظل هامشيا في المستقبل. والفارق بين العرب والكيان الصهيوني في هذه القضية تحديدا أن الخيارات المتاحة للعرب في عالم المستقبل والقوى التي ستهيمن عليه أكبر بكثير من الكيان الصهيوني. فكيان العدو يعتمد أساسا ويرتبط بنيويا بالمعسكر الغربي عموما، والولايات المتحدة خصوصا، ولا يبدو أن أي حليف محتمل أو ممكن مستقبلا يمكن أن يمثل بديلا مماثلا للكيان عن هذا التحالف الغربي المتقهقر. ما يجري من تحولات هي أحد امتحانات حقيقي ومصيري العرب، ليس فقط للخروج من الواقع البائس الذي تفرضه المنظومة الدولية بقيادة الولايات المتحدة وسياساتها المعادية للعرب، بل والتقاط الفرصة ليكون لنا شأن ومكان ومكانة تستحقها أمتنا في عالم المستقبل.

---

(١) Immanuel Wallerstein. «Precipitate Decline: The Advent of Multipolarity.» Harvard International Review, Sprig ٢٠٠٧. Pp. ٥٩-٥٤.

(٢)
على سبيل المثال: Mortimer B. Zuckerman. “Debate: A Second American Century”; Paul Krugman. “Debate: America the Boastful”. Foreign Affairs, May/June ١٩٩٨; Fareed Zakaria, “Can America Be Fixed?” Foreign Affairs, Jan/Feb ٢٠١٢٣, pp. ٣٣-٢٢

(٣) https://www.infrastructurereportcard.org/americas-grades/

(٤) https://www.cfr.org/backgrounder/state-us-infrastructure

(٥) Allison, Graham. ٢٠١٧. «Destined for War: Can America and China Escape Thucydides’s Trap?» NY: Houghton Mifflin Harcourt Publishing Company.

(٦)
تم تجميع البيانات من قاعدة المعلومات في البنك الدولي
https://databank.worldbank.org/reports.aspx?source=٢&series=NY.GDP.MKTP.PP.CD#

(٧) https://thedocs.worldbank.org/en/doc/bdadc١٦a٤f٥c١c٨٨a٨٣٩c٠f٩٠٥cde٠٠٧٠٠١٢٠٢٢-٨٠٢/original/Poverty-Synthesis-Report-final.pdf

المشهد العربي

مقدمة:

في شبه الغياب لحركة التحرر العروبية تحتل الأنظمة المشهد العربي مما يزيد في تغييب الشعب وخصي الوعي النقدي عامة، طالما قوة وأداة النقد مغيبة أو باهتة.

إن المشهد العربي بناء على دور الأنظمة مثابة مرآة في العموم اسمها واحد وفي الواقع محطمة إلى أجزاء تصعب إعادة تركيبها، مما يلعب دوراً في صعوبة استعادة فبعضهم بورث الشارع العربي لقضاياه الرئيسية، وتبقى الاستعادة شرط الخطوة الأولى للمشروع بقدر ما هو هام بقدر ما هو قيد مُغرَّب جداً. تلتقي أنظمة عربية فيما يزيد الافتراق وتختلف فيما يقوي المشترك العربي.

شهدنا في الأشهر الأخيرة ستة أنظمة عربية تشجب العمليات الفدائية ضد الكيان الصهيوني الإشكنازي، بينما لا تخجل بالحد الأدنى لتنتقد وحشية الكيان. وهذا الإفتآت ليس صدفة ولا جهلاً بل ضمن مشروع لتصفية القضية الفلسطينية وانتزاعها حتى من الوجدان العروبي، فما بالك من قرار المقاومة؟

إن تجرُّؤ أنظمة على شجب المقاومة، وصمت أخريات عنها، ومشاركة أنظمة في مؤتمر العقبة أيضا ضد المقاومة ومؤتمر شرم الشيخ، إن هي إلا مكونات لموقف رسمي عربي في معظمه متخارج وضد المقاومة ومغرق في التبعية. ولا تختلف لقاءات السعودية ودول الخليج ودول عربية أخرى، فكل منها يقيم علاقات فُرادى مع الغرب ومع الشرق مما يجعلها الطرف الأضعف من جهة والمبتعد عن المصلحة العروبية المشتركة من جهة ثانية، بل إن البعثرة والتجزئة تحدث بقرار ووعي لقطع الطريق على أي تبلور عروبي.

صحيح أن الهدنة السعودية الإيرانية هامة لحقن دم الضحايا وهي عربية بحتة، هذا دون الدخول في توقعات مآلاتها لا سيما فيما يخص التحشيد الطائفي المديد والمتبادل من المشايخ سواء علانية أو سرا وهو الأخطر؛ مما يعني أن توقف الحكام، إذا كان صحيحاً، لا يعني نزول هذا إلى أدوات الأنظمة ومثقفيها العضويين من رجال دين ولبراليين وانتهازيين حيث يفتك هؤلاء بالقاعدة الشعبية.

فالتحريض الطائفي والديني والمذهبي في مختلف الأديان هو الأخطر لأنه تحشيد شعبوي، وغالباً تتم تمظهراته قاعدياً كما لو كان خارجاً أو بعيدا عن المواقف السياسية. ويجب علينا تبيان للقراء بأن هذا التحشيد هو الأخطر وهو الذي يعيش طويلاً. لعل أوضح مثال على هذا حرب المشايخ باسم الطائفتين مع أنها في خدمة الأنظمة وخدمة وظائف المشايخ، هذه الحرب تشكك في كل التاريخ والحديث والأقوال حيث ينفي كل طرف رواية الآخر!

المهم أن هناك كما يبدو توجه من الطرفين لهدنة وربما أبعد، وهذا هام ويجب علينا متابعته بمستويين:

الأول: توضيح مدى تطابقه مع العروبة كما نراها كي لا يُهيمن الخطاب الرسمي على الجماهير، وهذا مكسب هام لها حيث تُعفي نفسها من السيطرة بنعومة الهيمنة.

وثانياً: مواصلة نشر رؤيتنا لما يجب أن يكون عليه الحال أي التغيير وليس الشرح والتفسير.

ولكن الهدنة احتوت أيضاً بنداً يتضمن خطرين مضادين للعروبة بلا مواربة، وهو بند تمسك السعودية بالمبادرة العربية وهذا يعني:

أولًا: الإقرار ببقاء و"حق" الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة 1948 والتطبيع معه من كل نظام يقبل بهذه المبادرة أي مختلف الأنظمة العربية.

وثانياً: التمهيد لتسويد النظام السعودي على الوطن ككل.

يبقى أن نشير إلى أن الهمروجة الإعلامية للانفتاح الشكلاني على سوريا بعد الزلزال يتم عبر خطة خبيثة، تمسح جريمة قيام أنظمة بالعمل إرهابيا على اجتثاث القطر العربي السوري بأكمله وتجاوز كل هذا، بل تقزيم الجريمة إلى مساعدات دوائية وغذائية مغلفة بغوغاء الإعلام وتصريحات الرسميين ومأذون لها من الإمبريالية الأمريكية ولفترة محددة!

لذا، يجب:

- النظر بحذر إلى المجاملات الدبلوماسية بين الأنظمة العربية وسوريا بينما لا يحتج أياً منها على العدوان الصهيوني والأميركي المتكرر على سوريا.
- الإصرار على أن بنية ومصالح وإيديولوجيا هذه الأنظمة لا ترقى قط إلى الانتقال إلى المشروع العروبي.

ترافق مع بداية نيسان الجاري "ونحن نُعد هذا المشهد" تزايد انتهاكات العدو للأقصى والذي أدى إلى ردود من المقاومة، وهذا أمر هام بغض النظر عن طبيعة وشدة الردود وكذلك بغض النظر عن أن هذه الردود لجمت تطاول العدو ولم تمتد إلى الرد على العدوان ضد سوريا، ولكن لا ندري مدى بقاء/ صمود نصف الهدنة هذه.

لكن أهمية الردود كامنة في مجرد حصولها لأن هذا يقود إلى:

- لأن الرد هو مقدمة للانتقال إلى المبادأة من جانبنا
- لأن الرد يخرجنا من نطاق الكسل.
- لأن الرد يعني/ يؤكد أن التناقض تناحري.
- لأن الرد يصد الهواء الفاسد لمشاريع التسوية، يبقى وجوب اشتعال الشارع العربي هو ما نطلبه بلا تردد.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهو يُعيد إلى واجهة الحياة اليومية للمجتمع العربي التواشج بين الحركة الوطنية الفلسطينية والأردنية، كمقدمة لتواشج عروبي مما يؤكد بأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية عروبياً.

صحيح أن مسألة العروبة والتحرير جرى تغييبهما على مدار عقود هيمنت فيها أنظمة النفط والممالك، لدرجة أصبح ذكر العروبة والتحرير مثابة هذيان. وخاصة مع صعود وسيطرة قوى الدين السياسي ومشروعها الإرهابي الذي خُطط له ويُقاد إمبريالياً.

- الأرض المحتلة

مجددا تعود الأرض المحتلة عبر النضال الفدائي الجديد وليس فقط العدوان كبؤرة التناقض والصراع، حيث الأرض المحتلة والأسرى وسوريا تمثل ميدانيا مختلف أطراف محور المقاومة وتشد العالم بأسره. ويرد العدو بمستويين من العسف: مستوى الانتقام الوحشي بلا حدود ومستوى أخذ الصراع إلى مزاعم الرواية الدينية التوراتية بقصد:

- الهروب من الرواية العلمية التاريخية المدعومة أركيولوجياً.
- نسخ وزعم إنشاء وتبني مختلف الملاحم العربية القديمة في العراق وسوريا وحشوها في كتبه.
- استخدام الإعلام والمال والأكاديميا والسياسة لنسج كتابات ومؤلفات تعتمد التوراة وما أُلحق بها لتغييب الرواية التاريخية.

وعليه حتى اليوم كان هروب الكيان لصالح الرواية الدينية ناجحاً بدعم الغرب بأكمله عبر تزييف كاد يكون معولماً.

صحيح أن اليهود عموماً والحركة الصهيونية خاصة تمسكوا بالرواية الدينية أي التوراتية وما تلاها من تشريعات ...الخ، ولكن كل هذا لم يكن ليلعب دوراً في إقامة الكيان قط لولا دخول الغرب بدءاً من بريطانيا وهولندا الإنجليكانيتين حقبة الرأسمالية بمحتويها: الاقتصادي الإنتاجي محلياً والاستعماري خارجياً. ومن هنا كان التلاحم بين الرأسمالية وبين الصهيونية. وهذا يقتضي دقة في الرؤية بمعنى، أن الأساس في إقامة الكيان ليس لا التوراة ولا الحركة الصهيونية بل الحاضنة الرأسمالية الغربية حتى اليوم. وكل ما نشاهده اليوم من تصريحات وعنتريات قادة الحكومة الحالية في الكيان والتمظهر بالخروج على إرادة سيدها الغربي، إنما من أهم أهدافه تثبيت الرواية التوراتية وإخفاء الحقيقة الكبرى وهي أن كامل هذا الغزو الاقتلاعي لفلسطين والتدمير واحتجاز التطور العربي لم يكن ليحصل قط لولا قوة الرأسمالية الغربية ولاحقاً في مرحلتها الإمبريالية واليوم العولمة. أي لولا الغرب الرأسمالي الإمبريالي لبقي أتباع هذه الديانة في المعبد

المتخيَّل يرددون بكائيات على ارتباط مُدَّعى بقبيلة عربية قديمة انقرضت تماما قبل ثلاثة آلاف سنة، حيث لا يُعقل أن

انفجاراً نوويا أصاب تلك القبيلة الصغيرة فتطايرت شظاياها من رأس الرجاء الصالح إلى مضيق برنج إلى بلاد الآسوج/ السويد إلى كندا، وتلونت بشرة كل شظية منها بلون بشرة أهل هذه المنطقة أو تلك. معروف طبعاً أن أدبيات الاستعمار البريطاني أصرَّت على قراءة فلسطين على أسس دينية وحتى مذهبية، وذلك لأغراضها المنسجمة مع الهدف الصهيوني.

ولكن طرأ مؤخراً متغير هام وهو الرد على الكيان مباشرة بعد الانتهاك الفظيع للأقصى. وحيث نرصد في إشتباك عربي الصراع المسلح بين المقاومة والكيان، وإن بشكل محسوب بدقة من الطرفين، تحاول سلطات الكيان الحالية بالمقابل كطبعة صهيوشكنازية في صراعها مع الإشكنازية المؤسسة للكيان، توظيف الصراع لصالح مشروعها لوراثة نقيضتها وهو مشروع تحويل الكيان إلى دولة دينية نابذة للصهيونية العلمانية التي لا تكتفي هذه السلطات بحدود دينيَّة السلطة السابقة من جهة، وفرض رؤيتها الدينية على الطرف العربي كي يتعاطى مع الصراع كمسألة دينية في الأساس.

ولعل أهم ما يلفت هو محاولة سلطات الكيان التغطية على أن تأسيس الصهيوني ليس يهودياً وإنما غربي استعماري، وبأن إقامة الكيان كان ولا زال محالاً دون التأسيس والاحتضان المطلق من قبل الغرب. كما أن ما يشجع الكيان على هذا التغوُّل والادعاء هو الواقع الرسمي العربي سواء التطبيع السري أو العلني.

بالمقابل، يتزايد الضخ الإعلامي في مديح التحولات الشكلية للنظام العربي الرسمي باتجاه سوريا، وهذا علينا رصده بحذر شديد تجاه شكلانيته وتجاه تشويهه للتطلعات والرؤية الشعبية. فالاشتباك مفتوح، والعدو لا يزال مدعوما غربيا وعربياً للجم المقاومة سواء في مؤتمري العقبة وشرم الشيخ، والأخطر توسط قطر مع حماس وتوسط الإمارات مع الكيان لتهدئة الاشتباك. وهذا التوسط هو لا شك تكليف أمريكي لكن خطورة أبعد بمعنى أن الأنظمة العربية تمارس بقصد تثبيت أن الكيان "شرعيا"، مما يقود إلى تطبيع المقاومة وإن تدريجيا ضمن مراهنة على "تحسين" علاقاتها ببعضها ومع سوريا وإيران، أي تمرير رؤية سياسية تقوم على تصالح مزدوج بين الأنظمة ومع الكيان!

- **لبنان:**

إن ما يحصل في لبنان هو التدهور الطبيعي الذي أسست له الطائفية يمستوييها: الدين السياسي والتطبيق السياسي للطائفة، أي نقلها من حالتها كجزء طبيعي من المجتمع في مرحلة من مساره الاجتماعي إلى تحولات طائفية، أي من طائفة إلى طائفية، إلى مجتمع موازي ومعادي للآخر. بل حتى في لبنان وغيرها بُنى مذهبية في الدين الواحد مضادة لمذاهب أخرى في الدين الواحد. ولأن الطائفية جاهزة للخيانة القومية ولأنها أي كل بنية طائفية أعجز من أن تقف على قدميها وحدها فهي متخارجة وبالتالي تابعة سواء للغرب، أو لإيران أو لتركيا أو حتى للكيان. إلغاء الطائفية السياسية لا يكفي بل إلغاء الطائفية الدينية وإعادة الناس إلى الدين الإيماني والروحاني.

هذا التوازن الطوائفي أوصل البلد إلى تدهور الإجماع من حده الأدنى أو الشكلي كتغيير التوقيت إلى حده الأقصى في العيش بلا رئاسة، بانتظار سادة دوليين وإقليميين ليقرروا للبنان الكبير طربوشه!

في الأيام الأخيرة كان لبنان كفلسطين على حافة دخول الحرب. وفي حال كهذا، ربما لا

يقاوم طرف ويحتجب طرف، بل قد يصطف طرف لصالح العدو. ولعل هذا ما دفع المقاومة لرد محدود كما أن العدو كان رده محدوداً نظراً لإشكالاته الداخلية من جهة، وحاجة العدو الأمريكي لتهدئة هنا ولكن مقرونة ببعض التهديد.

- **سوريا:**

لافت وربما مفارقة أن يؤدي دمار الطبيعة إلى توقف دمار أنظمة التبعية ضد سوريا، ومقلقٌ أن ينحصر هذا التوقف في مستوى "الإحسان والصدقات واللغو الرسمي باسم العرب". ولكن لعل الأهم في الوضع السوري رغم كارثة الزلزال ليس هنا، بل في الموقف السوري الواضح تجاه مناورات العدو التركي الذي لم يُنضج ولم يُنه أي ملف فتحه أو انضم إليه، حتى حينه على الأقل.

فرغم تعدد مناورات وتمدد النظام التركي إلا أنه يعتبر "الإنجاز" الوحيد له هو المساهمة في تدمير سوريا واغتصاب جزء جديد من أراضيها وأراضٍ عراقية، أي مواصلة العدوان الطوراني التاريخي ضد العرب. ولذا، يناور أردوغان ليغتنم لقاء مع الرئيس الأسد قبيل الانتخابات ليكسب بشكل ثلاثي:

- أي بقاء العدوان وكسر الإرادة السورية
- ودخول الأسواق العربية التي لا يُنتج أهلها!!
- وتأكيد الحصول على أصوات أكثر.

ومن جانب آخر، فإن الانفتاح الشكلاني الرسمي العربي على سوريا محفوف بمخاطر محاولات فك تحالفها مع إيران والتغلغل ضد محور المقاومة وجرها إلى التطبيع في التحليل الأخير، ولا يقلل من هذا الخطر ذلك التطبيل الإعلامي البرجوازي العربي بأن أنظمة التطبيع تبرده أو تتراجع عنه تدريجياً! فهذه الأنظمة مرتبطة لم تخرج وليست مؤهلة بنيويا وإيديولوجيا للخروج من تحت المظلة الأمريكية من جهة، ولا تعتبر القضية الفلسطينية قضيتها، لأن هذا الاعتبار يعني الانتقال من القطرية إلى الدولة

العربية وهذا ما لا تقبل به. بالأمس كانوا يقولون "فلسطين ليست قضيتي" نعم وكانت قضيتهم تدمير سوريا، فهل عشقوها اليوم؟

وهكذا، فإن الانتصار العسكري السوري النسبي أو غير المكتمل ليس كافياً ولا ضامناً لتعافي سوريا التي يُقتطع منها الملايين من الشعب ومساحات واسعة، بينما تتعرض الدولة بكاملها للحرب الاقتصادية التي قررتها الولايات المتحدة ومارستها الأنظمة المحيطة بسوريا. باختصار، لا يجب أن نطمئن عميقاً بأن سوريا تجاوزت الحروب ومفاعيلها لأنها تبدلت من حرب إلى أخرى بجانبها، ولعل آخرها الحرب الدبلوماسية. لقد مضت ثلاث عشرة سنة بين تدمير العراق واحتلاله. صحيح أن الظرف اختلف وكذلك التخندقات ولكن لا شيء مطلق التكهن به، فالاتحاد السوفييتي الذي خذل العراق وروسيا التي خذلت ليبيا، تحل محلهما اليوم روسيا التي تعتبر مليون مستوطن روسي في فلسطين من رعاياها بينما هم غُزاة!

بعد تهبيط مصر وتدمير العراق والاستمرار إلى تدمير سوريا، هذا دفع مشروع التحرير والعروبة إلى الوراء. فما هي ملامح دخول الصين إلى الوطن الكبير وهدنة السعودية وإيران؟ هذا للتساؤل وليس للإجابة.

- **العراق:**

تمر هذه الأيام ذكرى سقوط بغداد الثاني هذه المرة على يد تتار الغرب وعملائهم العرب في خدمة الكيان الصهيوني. بل منذ 1991 قام العدوان الغربي بتدمير العراق وحين احتل بغداد 2003 نصَّب عليها من استجلبهم من الخارج وأمسكوا بعنق البلد، وجعلوه حالة تقاسم غير معلن ولا مكتوب بين أمريكا وإيران. فالعراق اليوم يستورد التمور وكان منتجها الأول عالمياً ويستورد النفط وكان ثاني منتجيه.

تغرف أمريكا نفط العراق وتخزن الفائض لديها وترسل بالطائرة دولارات إلى سلطة تنفق على تحالفها وقواعده وموظفيه وتدفع على شكل أتاوة للكرد الذين تخصصوا في حماية نفط سوريا المسروق أمريكيا، ولا يبقى ما يمكن استثماره، بل لا توجد حتى سياسة إصلاح اقتصادي في وضعية استرخاء ما قبل رأسمالي أي ريع وتحكم به وإنفاق على الحواشي. ومع ذلك يقولون تحرر العراق ودخل محور المقاومة!

تقول التقارير الإعلامية: "... بينما مؤخراً تعمل قطر على "الاستثمار" في العراق! بعد أن كان جنة وكانت بواديا. وفقًا لتقارير إعلامية نُشرت أخيراً، تستعد الدوحة لنقلة حاسمة في قطاع النفط والغاز في العراق، مع إبداء شركة «قطر للطاقة» العملاقة اهتمامها بالدخول في مفاوضات مع شركة «توتال إنرجي» لشراء حصة في مجموعة من مشاريع الطاقة التي تديرها الشركة الفرنسية في هذا البلد بقيمة 27 مليار دولار؛ أي نقل نفط العراق من التأميم إلى الشركات متعدية الجنسية... الاتفاق المحتمل سيثير ارتياح الحكومة العراقية الجديدة ورئيس وزرائها محمد شياع السوداني، في وقت تواجه البلاد نقصاً حاداً في انتاج الكهرباء، وتقع تحت عبء اضطرابات سياسية. كما أنه قد يساعد على احتواء نفوذ طهران القوي في البلاد، إذ تعتمد بغداد حالياً بشكل كبير على إيران المجاورة لتزويدها بالكهرباء والغاز. ومع ذلك، يضيف ويدرسهوفن لـ "the Cradle" أن «الفساد وغياب الاستقرار الداخلي والنفوذ القوي لإيران القوي هي أهم عوامل هجرة المستثمرين الأجانب من هذا البلد».

بعض المحللين، مثلاً، يعتقدون بأن المشاركة القطرية تتماشى إلى حد كبير مع الاستراتيجية الأميركية الجديدة لتزويد أوروبا بالنفط والغاز العراقي، وخفض الايرادات الروسية إلى أقصى حد ممكن. في هذه المعادلة، يُنظر إلى قطر على أنها حليف رئيسي جديد للولايات المتحدة في الخليج، خصوصاً بعدما تلقت إدارة بايدن حماماً بارداً من المملكة العربية السعودية و«أوبك» لرفضهما زيادة حصص إنتاج النفط.

"... وأشار إلى أن «التفكير في أن الدوحة تفعل ذلك بناءً على طلب واشنطن يمنح إدارة بايدن الكثير من المصداقية» مع ذلك، يُعتقد إلى حد كبير أن الاستثمار القطري الضخم قد يكون خطوة لمواجهة النفوذ الإيراني في العراق".

مثل هذا التطور، سيكون موضع ترحيب من رئيس الوزراء العراقي الجديد ومن الغرب ودول الخليج العربية المجاورة، وهذا بالطبع ليس قطاعات الإنتاج أما اجتماعيا وسياسياً فستكون استثمارات تراوح بين الطائفية واجتثاث عروبة العراق.

بدورها تركز الإمارات على الموانئ متنافسة مع إيران التي تربط العراق عبر البصرة بسكك حديد.

- **الأردن:**

إذا كانت بعض الأقطار تُقرأ

على أرضية موقعها أو وضعها وقوتها فإن الأردن يُقرأ على دوره، فكلما حصلت توترات أو حرباً في المشرق العربي كلما اتضح أن الأردن منذ وعد بلفور كان وديعة بيد النظام إلى أن يحين ابتلاعه لصالح الكيان الصهيوني، لذا عاش النظام على إشكالات أو مساعدات الإمبريالية ومساعدات من الأنظمة العربية القطرية المضادة للوحدة.

ولذا أيضاً بقي ضد أية وحدة عربية سواء كان فيها أو مهادناً لها، هذا مع أن بنية البلد أو مقوماتها الاقتصادية لا تسمح له بالعيش ولو بدرجة دنيا من الاعتماد على الذات، ولهذا تحديداً كان على النظام أن يؤدي الدور المناط به خير تأدية.

ولعل آخر ما قام به:

- تمرير ما أوحت به أمريكا أي الهلال الشيعي، أي ضد الشيعة.
- إقامة غرفة موك في عمان، أي ضد السنة.
- لجم الحركة الوطنية بأي شكل.
- والحفاظ على الاعتراف بالكيان واستيراد الطاقة منه/ المنهوبة من أرض فلسطين رغم الإهانات التي يوجهها له العدو.

لعل الحجم الحرج للوضع في الأردن هو:

- تردي الوضع الاقتصادي لبلد كان يعيش إلى درجة عالية على عدة ريوع من الخارج وليست من موجودات أو الموهوبية الثرواتية للبلد.
- سيطرة الفساد والمحسوبيات على السلطة من رأسها حتى متوسطي موظفيها.
- فتح قواعد الجيش للجيش الأمريكي ومنحه حرية مطلقة.
- النظام في واد والشعب في آخر.
- إحكام آلة القمع ضد اي حراك وطني.

إن دل هذا المشهد على شيء إنما يدل على أن الأردن لا يمكن أن يتغير وضعه بآليات ذاتية مما يؤكد ارتباط التغيرات فيه بالأقطار المحيطة أي سوريا العراق. وعليه، كلما كان وضعهما متدهوراً كلما تمكن النظام الأردني من التغول في التبعية ومعاداة الشعب.

من هنا يبقى وجوب السير باتجاه تكامل وتوحد الحركة الوطنية في الأردن فلسطين لتكون بداية تطبيقية لاستعادة هذه الحركة عروبيا، وبالمناسبة فكلما اشتد عود المقاومة في الأرض المحتلة كلما ارتفع منسوب النضال الوطني في الأردن.

- السعودية:

إذا كان الخليج محظوظا في كونه بعيداً عن مرمى مشرق الوطن ومغربه وموهوبا بالنفط، فإن السعودية هي الأوفر حظاً بين المحظوظين. فالنظام السعودي انتقل من الحماية البريطانية إلى الأمريكية وبناء على ذلك جرى توظيفه وتخصصه ضد القومية العربية والثورة عالمياً. ومنذ هزيمة 1967 أصبحت السعودية قائدة للوضع الرسمي العربي سواء مباشرة أو لا مباشرة. ومنذ الانقلاب ضد محمد ظاهر شاه في أفغانستان لعبت السعودية

دور ممول إرهاب قوى الدين السياسي بالمال والقوة البشرية، إلى أن قادت حرب هذه الإرهاب ضد سوريا واليمن خاصة.

ولعل المهم أنها لم تدفع ثمن كل هذا، بل هي تقفز مؤخراً إلى واجهة قيادة الوضع الرسمي العربي والإقليمي سواء ب:

- الهدنة مع إيران وإصرارها على المبادرة العربية.
- تحسين علاقتها بسوريا.
- استضافة مؤتمر القمة العربي في أيار المقبل.
- الحظوة بفرصة تسييل نفطها إلى الصين وإقامة علاقات قوية معها توازي علاقتها بأمريكا.
- توفر فرصة مشاكسة أمريكا دون التعرض لضغط حقيقي أو دون توفر القدرة الأمريكية للاعتداء «التأديبي» على من يشق عصا الطاعة.
- طمأنة الكيان وأمريكا.
- تخفيف إيراني سعودي للإيديولوجيا لصالح المصالح أو تبادلهما

أمام هذا التجهز والتجهيز السعودي للعب دور على الصعيد العربي بديلاً للمطلوب عروبيا وتقدمياً، يغدو من المهم النظر للأمام من قبل حركة التحرر العربية كي تكشف هذا الدور وتبني ما يواجهه بغض النظر عن إمكانيات كل قطر وظروفه.

- اليمن:

هل سيكون اليمن موقع اختبار الهدنة السعودية الإيرانية؟ وهل سيتم تراجع إيراني عن الإيديولوجيا مقابل السياسة؟ وما حدود تأثير إيران على الحوثيين إيديولوجياً؟ فقبيل العدوان كان خطاب اليمنيين عموما عربيا ثم عربيا إسلاميا، واليوم تقريبا إسلامياً! وأين ستكسب إيران إذا قدمت مرونات في اليمن؟ هل سيكون هناك تقاسم أدوار؟

فالسعودية معنية ببقاء يمن ضعيف وفقير وتابع لها، وهي وإن مالت للتهدئة اليوم فذلك لضخامة خسائرها ولأنها تركز الإنفاق على مشاريعها للعشرة أعوام المقبلة. هل ستشتبك السعودية مع الإمارات في اليمن أم هل ستتوافقان على تقاسم الأدوار، وهل سيرضي إيران هذا؟ وماذا عن الجنوب هل سيتم دفع اليمنيين ضد بعضهم جهوياً وطوائفيا، أم سيتم تقسيمه فدرالياً؟ وهل يعتمد هذا على مواصلة كل طرف إقليمي أو دولي دعم طرف يمني مما يقود إلى صعوبة بلورة يمن موحد.

أي السؤال الأهم: ما مصير اليمن؟ صحيح أن هناك انسحابا إماراتياً لكنه لم يشمل الجزر التي بها قواعداً للإمارات، ضمن شبكة سياساتها المرفئية والتي تنافس التوجه الإيراني بربط العراق معه بسكك الحديد، هل ستخلي الإمارات هذه القواعد؟ وإن لم تفعل هل سيقوم اليمنيون بمقاومتها؟ وكيف سيكون التخندق؟ بدورها هل ستقبل السعودية بدور شكلي وخاصة تجاه باب المندب، فكيف طبعاً بأمريكا والغرب عامة؟

من هنا فإن مطالب اليمن في فك الحصار ودفع الرواتب لا تكفي إن لم يكن المطلوب وقف الحرب والتعويض. فهل ستدعم إيران مطلب التعويض؟ أم أن السياسة

ستغلب الإيديولوجيا؟

- **دويلات الخليج:**

يقود تحسين العلاقات السعودية الإيرانية إلى تسهيل عودة السعودية إلى لملمة دول الخليج لصالحها، بعد أن واجهت تمردات قطر والمنافسة الإماراتية، سواء بالمشاركة في العدوان ضد اليمن أو في العدوان على سورية.

قد يجوز لنا حتى الآن، وصف الوضع الخليجي بأنه ضمن التقسيم الأمريكي للعمل بين هذه الدويلات، أي ليست سياساتها تجسيدا وتعبيرا عن قرارات سيادية سياسية. فالانفتاح الإماراتي الموسع على سوريا بدأ ولا يزال منضبطاً بالسماح الأمريكي ومقرونا بعلاقات قوية مع الكيان، إلى حد "التوسط" إن جاز التعبير بين المقاومة والكيان. يقابله التمترس القطري ضد سوريا ومواصلة العلاقات القوية مع تركيا، رغم تحسين معظم القطريات علاقاتها بتركيا.

وطبعا الحفاظ على تسييل الطاقة للغرب طبقا للمخطط الأمريكي دون أن تدخل في مواقف مضادة لروسيا.

أما بقية دول الخليج فتسير في الفلك السعودي وإن بدرجات متفاوتة، حيث تتموضع عمان في موقف أكثر استقلالية من الكويت والبحرين مثلا. لكن يبقى بالنسبة لنا حدود علاقة ودور كامل هذه الأنظمة بالمشروع العروبي، لأن المطلوب واقع عربي خارج نطاق العلاقات الرسمية والهدنات الرسمية هذه.

وكأننا أمام رسم مشهد جديد للخليج وكامل الوطن العربي مفاده:

- تكريس القطرية كبديل ثابت للقومية وليست كما روج كثيرون بأن الدولة القطرية خطوة على طريق الدولة القومية.
- استبدال الدول العربية العروبية المركزية بدور مركزي للنظام السعودي.
- تهدئة الصراعات البينية.
- ضبط العلاقات الاقتصادية بحيث لا تقود إلى خلق قطاعات شعبية لها مصلحة في التكامل فما بالك بالوحدة.
- ضبط الشارع العربي بحيث لا تكن هناك توجهات قومية.
- تبريد التحشيد الطائفي والمذهبي وبهذا يكون الوطن مريحاً.

- **مصر:**

تمثل مصر صورة فعلية للواقع العربي سواء في نهوضه أو انحطاطه، ولعل أحد جوانب هذا التمثيل والأكثر دقة هو غياب مأسسة الدولة أو ما تسمى الدولة العميقة، التي مهما حصلت تغيرات واختلالات على السطح تبقى هي قابضة على مقود البلد في مواجهة تغيرات في البنية الأساسية ومن ثم الدور. وإذا كانت فترة عبد الناصر قد أرست مفهوما ودورا لمصر يليق بها ويؤكد دورها العروبي، فلماذا تمكن السادات من نسف كل شيء، وكان مبارك مثابة تأكيد لدور السادات، ولم يختلف السيسي عنهما؟ وإذا كان هذا حال مصر، فماذا إذن عن بقية القطريات العربية والتي على

العموم تشرحها الأشهر الأخيرة:

فمن ناتو عربي إلى قمة النقب، إلى قمة العقبة إلى قمة شرم الشيخ، ومن ثم إلى انفتاح على سوريا وانفتاح على الصين. فهل هذه التغيرات الدرامية مثابة "ثورية" كامنة وتجلت في هذه الأنظمة، أم هي تأكيد أن الدولة بالمعنى العميق غائبة في هذه القطريات؟

لقد وصل النهج ما بعد العروبي، أي ما بعد الناصري، بمصر إلى ما هي عليه الآن تستجدي القروض من صندوق النقد، وتتوسل إلى السعودية لتقديم ضمانات قروض مع العلم بأن السعودية أول من يُصرَّ على هبوط مصر، وتغازل الإمارات على حساب قطر، وتحسب كلامها مع سوريا بالحرف وتتوسط بين المقاومة الفلسطينية والكيان الصهيوني.

قبل فترة وجيزة كانت مصر ضمن طاردي الصين من إفريقيا، وها هي تتخطى الخط الأحمر الامريكي بتقييد الاستثمارات الصينية في مصر، وتوقع في أسبوع واحد ما قيمته ٧ مليار دولار استثمارات صينية مباشرة، وهو رقم لم تصل إليه مصر حتى في استثمارات قطاع البترول. وهل هذا ما دفع صندوق النقد والبنك الدوليين لتمرير قرض لمصر قيمته ٧ مليار دولار. ومع ذلك يبقى السؤال، أين ستُصرف حصة الدولة/ حصة البلد من هذه الأموال؟ هل على سداد القروض وفوائدها وما سيبقى هل سيذهب إلى المدن الجديدة/ أهرامات القرن الواحد والعشرين؟

لا نستطيع أن نقول لا للدائنين في نادى باريس وصندوق النقد والبنك الدوليين ومنظمة التجارة العالمية وللمستثمرين الأجانب من شركات متعددة الجنسية ووكلائهم المحليين، ولا نستطيع أن نحمي صناعاتنا الوطنية أو نرفض بيع القطاع العام أو تعويم العملة المصرية وربطها بالدولار.

والسؤال: من يحاسب؟

- قطر أم امريكا والإخوان؟

تجسد قطر جوهر التحالف بين الإمبريالية الأمريكية وقوى الدين السياسي وخاصة الإخوان. ولذا، فمختلف السياسات القطرية والتي تبدو بأضخم من حجمها الجغرافي والبشري ليست من بنات قدرات سلطاتها. قطر هي الوحيدة التي أبقت على علاقتها بالعراق إثر استعادة الكويت، وهي التي بثت سقوط بغداد 2003 قبل سقوطها ولاحقا سقوط طرابلس، وهي التي عاندت السعودية لسنوات وهي التي وقفت دوما وتماما ضد سوريا وحتى الآن، وهي التي ساهمت في إعمار لبنان بعد عدوان الكيان وهي التي تتوسط اليوم بين حماس والكيان للجم الاشتباكات! أي هي أكثر من يطبق:

- سياسات الولايات المتحدة.
- وتعاليم قوى الدين السياسي ضد العروبة مع تطبيع حقيقي وغير معلن مع الكيان.
- وهي التي تخصي المثقفين العرب بشكل منهجي.

صحيح أن مواقف الأنظمة العربية لم تتغير ولن تتغير إلا نسبياً مع التطور البطيء ممثلا في صعود قطبيات أخرى في العالم، ومع ذلك ستكون قطر أقل وآخر من يتغير أو يُغير.

- السودان فوق صفيح ساخن:

تتنازع السودان الكثير من التناقضات المرشحة للتفجر، فهذا البلد الشاسع يعاني الأمرين في تدبير معاش مواطنيه، والأخيرون يعانون الأمرين من أجل تسديد فاتورة إثراء طبقة محدودة العدد من مواطنيه تتحكم في الطعام والدواء والسفر والكساء وجميع الخدمات. تؤكد بعض التقارير الصحفية أن معدلات نمو الثروات الخاصة تجاوزت خمسمئة بالمئة في العام الواحد، وأصبحت المشاريع العقارية الضخمة ظاهرة ملحوظة حتى في الحواضر الصغيرة والنائية، وباتت الطبقات الثرية من تجار وأصحاب شركات الاستيراد والمخازن والموزعين الإقليميين تملك مشروعات عقارية أكثر بكثير من أي وقت مضى، حتى عن فترة الوفرة النفطية بين منتصف التسعينيات إلى عام 2012. وتعزى تلك الظاهرة بالأساس إلى تحول الدولة إلى النمط الجبائي الصرف، وقد تركت عنان السوق بيد القطاع الخاص الذي انطلق في خم الأرباح بسعار محموم وكأن العالم ينتهي غدا.

نعيد ونكرر ذلك التقديم لأنه جميع ما تلا ذلك من انشطارات أفقية ورأسية في التجارب المماثلة في البلقان وغيرها إنما عن ذلك الإثم قد تفرع، انسحاب الدولة اقتصاديا وبالتالي كشف الغطاء الجامع والإيذان باحتماء الأفراد والجماعات برداء القبلية والعشائرية بحثا عن قدر من الضمان الاجتماعي والأمن. وهذا المنحدر بالذات هو ما يعوق تخلق هوية جامعة لهذ البلد الذي بالكاد بدأت الطرق بين أقاليمه تستقيم قبل أقل من خمسة عشر عاما، وها هي ضغوط الولايات المتحدة لتحرير الاقتصاد تنسف تطور تلك الهوية عبر رفع يد الدولة اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم تسليم الناس لانتماءاتهم العرقية، حيث وكما حدث في جميع البلدان التي تتكون من قبليات وعشائر غير مندمجة تمام الاندماج، تقود حالة انفلات السوق إلى صراع على الموارد والأراضي والثروات الفعلية والمحتملة ويتحفز كل قبيل لضمان أكبر قدر منها. بالطبع بيئة كهذه تكون أرضا خصبة للتأثيرات الخارجية من إدخال السلاح إلى التحريض ونشر الشائعات وغيرها، وكل ما من شأنه تفجير الأوضاع ونسف السلم الاجتماعي، أي الشرط الأساسي لتطور هوية جامعة مقنعة تضمن وحدة البلد واستمراره وتقدمه.

بين عامي 2003 و2007 نشأت وتطورت ظاهرة الجنجويد في غرب السودان بين شمال وجنوب وغرب إقليم دارفور، وتتكون من عشائر تنتمي غالبيتها لقبيلة الرزيقات الممتدة حدوديا عبر السودان وتشاد وإفريقيا الوسطى. وهي قبلية تحترف الرعي بعضها يرعى في سافانا فقيرة وشبه متوسطة وهم الأبالة (رعاة الإبل)، وبعضهم بقارة يرعون البقر في حزام عشبي أكثر غنى وأوفر مياها، والكثيرون منهم يعملون في تجارة الإبل والبقر. لعبت ظاهرة التصحر التي ضربت المنطقة منذ الستينيات والسبعينيات دورا جوهريا في تفجر النزاع بينها وبين قبائل الفور المزارعين من مساليت وغيرهم، وحسب تحليل المفكر المصري الراحل الأستاذ عيداروس القصير في تحليله لأزمة دارفور فإن النشاط الرعوي يحظى بأولوية الاهتمام من الدولة بحكم أنه الأكثر تصديرا وتسديدا للضرائب وجلبا للعملة الصعبة، مقارنة بالنشاط الزراعي الذي بالكاد يكفي مواطني الإقليم ولا تكاد الدولة تحصل عنه شيئا. ومهما قيل من تبريرات عرقية وعنصرية حول عروبة الرعاة وزنوجة المزارعين تبقى تلك مجرد تمظهرات للصراع الاقتصادي، حيث حددت الدولة انحيازها للرعاة على حساب المزارعين. يحب البعض أن يضيف إلى

ذلك الانتشار الجيد والمعقول لإيديولوجية الحركة الإسلامية بين المجتمعات في شمال دارفور عنها في الجنوب والغرب مثلا، إلا أن هذا البعد صعب التعويل عليه نظرا لما أثبتته الحوادث من تبلبل الولاء عند منتمي المدرسة الإخوانية، ممثلا في شخصية الراحل دكتور خليل إبراهيم ابن قبيلة الزغاوة المنتشرة بين السودان وتشاد، الذي كان ابنا للحركة الإسلامية وأحد أبرز قادتها العسكريين فترة الحرب الأهلية، إلا أنه تمرد على حكم البشير مرددا أن الحركة الإسلامية قد تخلت عن مسؤولياتها بعد وصولها إلي السلطة وأن النخبة الشمالية تسيطر علي جميع المناصب في الدولة، فيما شعوب أطراف السودان تعاني التهميش.

إذا فإن الحركة الإسلامية مدت يد التحالف فيما بعد إلى قادة آخرين من الرزيقات رغم كونهم غير محسوبين على تيار الإسلام السياسي، أبرزهم موسى هلال من عشيرة الماهرية وحمدان دقلو من المحاميد وكانا على رأس قوات الجنجويد، أي راكبي الجياد والمسلحين من قبل الدولة. بعد عام 2008 بدأ البشير في تنظيم الجنجويد في قوات شبه نظامية وبدأ إمدادهم بالعربات والمدافع الرشاشة، الثقيلة وبعيد انفصال الجنوب 2011 وفقدان البلاد لـ 75% من دخل النفط أصبح الوضع الاقتصادي في غاية الصعوبة، خصوصا لتوفير رواتب تلك القوات القائمة على التجنيد الطوعي. انكشفت في 2012 منطقة جبل عامر عن مناطق غنية بخام الذهب وسرعان ما شرع موسي هلال في الاستيلاء على امتيازات تنقيب، وشرع حمدان دقلو هو الآخر في بسط نفوذه. وحدث التصادم الذي انحازت فيه الخرطوم إلى دقلو وزودته بالمدرعات المملوكة للجيش لإنهاء الصراع والقبض على موسي هلال، ومن ثم منحته الخرطوم حقا شبه حصري في ذهب جبل عامر وهو الأمر الذي خلق ظاهرة حميدتي التجارية ودفعت طموحه السياسي إلي عنان السماء. يتمتع حميدتي (الاسم هو تدليل محمد ويقال للطفل الصغير وقد أطلق على حمدان دقلو بسبب ملامحه الطفولية) بذكاء فطري رغم تواضع تعليمه النظامي مكنه من الصعود السريع. فيما بعد طالبت القوات المسلحة باسترداد المدرعات التي أعارها البشير لقوات الدعم السريع إلا أن حميدتي ماطل في ذلك ولم يعدها أبدا، وهو الآن يقوم بحشدها في الخرطوم كنوع من استعراض القوة أمام قيادة الجيش النظامي.

خلفية الوضع الحالي هي تعثر التوقيع على ما يسمى بالاتفاق الإطاري بقيادة قوى الحرية والتغيير، رغم عدم اعتراف الشرق والبجوات به ولا قوات حركة مؤثرة وكبيرة مثل جيش تحرير السودان في دارفور. إلا أن الإعلام الغربي والعربي التابع روج لهذا الاتفاق باعتباره نهاية الوجع الانتقالي وبداية تشكيل حكومة وتسيير الدولة وفق أوضاع عادية.

كعادة الأزمات التي يدير الغرب دفة تسويتها يتغلب السياسي على الاقتصادي وتسود رؤى مهومة حول المستقبل تملأ الفراغات بالوعظ الفارغ عن التسامح والمساواة، والبدء من جديد وكأن التاريخ هو حقل ثقافي يمكن تفسيره وتحريكه بمجرد تغيير القناعات عند بعض الأفراد وتطييب خاطر هذا أو ذاك، ولهذا فإن تلك التسويات غالبا ما تتعثر ولا تنحل عقدتها إلا بالانشطارات والانفصالات الجغرافية، وهو المراد الحقيقي للإمبريالية التي ترعى وتقود وتخلق المناخ لتحصد ما تريد.

إبان الانتفاضة في 2018

و2019 رفضت قوات الدعم السريع بقيادة حميدتي التصدي للمتظاهرين حسب قوله واكتفي بالتأمين، مدعيا وقوفه إلى جانب مطالب الشارع بالديمقراطية والحكم المدني. ذهبت المناقشة مع الرعاة الغربية في كل اتجاه فيما تركت مسألة دمج الدعم السريع في القوات النظامية لتوحيد القوات المسلحة لذيل الجدول، فتركت وقتا طويلا ليحشد الدعم السريع دعما إقليميا ماليا وعسكريا كبيرا جدا ليكون قوة موازية للجيش النظامي. حيث تلقت مؤخرا أسلحة مضادة للطائرات لأول مرة في تاريخها فضلا عن تمويل ضخم لضم الآلاف من المقاتلين الجدد وشراء مئات عربات اللاند كروزر. وهكذا عندما حانت لحظة الحديث عن مستقبل الدعم السريع تفاجأ الجميع بأن الدعم السريع يحشد في الخرطوم قوات كبيرة ليظهر بمظهر القوات المنظمة القادرة على حفظ الأمن، والتي لا تقل عسكرة وحرفية عن الجيش النظامي. وهذا التطور الكبير لم يكن بعيدا عن التوجيه الغربي الذي يسعى إلى إضعاف المركز السياسي للدولة لتسهيل انفصال الشرق الذي أصبح يمارس نوعا من الحكم الذاتي، مع نصيب وافر من دخل الدولة على طريقة إقليم كردستان المدلل دون ضمانات محاسبية ولا مسؤولية واضحة أمام المركز.

يسعى الآن حميدتي للقفز على السلطة عبر انقلاب عسكري لا يستبعد أن يكون دمويا. توجه مئات من مقاتليه دون تفويض من القيادة العامة للجيش إلى قاعدة مروي الجوية شمال البلاد ليتمركزو في منطقة تم شراؤها وتهيئتها قبل شهور، ما يكشف تبييت النية على فرض السيطرة أو على الأقل تحييد القوة الجوية عن ساحة الصراع حال تفجره في المركز (الخرطوم). وهنا يبرز دور كتائب المثقفين الممولة غربيا والذين بدأوا في ملء الفضاء الإلكتروني والصحافي بتبريرات لتحركات قوات حميدتي، بأنها تطهر البلاد من القواعد الأجنبية (نظرا لوجود قوات جوية مصرية تمارس تدريبات مشتركة مع القوات السودانية من قاعدة مروي). وهكذا تتكامل الأدوار ويظهر دور الغرب من خلال أدواته الكثيرة وبالخصوص مثقفي وسط البلد، وسقط اليسار المناضلين بأجر من فريدريش أيبرت إلى الوقف الديمقراطي الأمريكي، مع شحن مستمر ضد المؤسسة العسكرية باعتبارها الشر المطلق والتناقض الرئيسي العائق لحركة التاريخ في السودان. وبغض النظر عن رجعية القيادات العسكرية وطبيعتها المشوشة والقابلة للتنازل والتطبيع، إلا أن بقاء المؤسسة العسكرية وتماسكها يظلان العاصم الوحيد من انفجار يأخذ أطراف السودان إلى أشلاء مترامية ويطيح بالسلام الاجتماعي ربما لعقود، ويشظي الأرض إلى دويلات متحاربة تستقوي على بعضها البعض بالتحالفات مع الكيان الصهيوني أو الإمبريالية الغربية. وهو ما يجعل طريق مصر إلى منابع النيل أبعد بكثير من قدرتها على الاحتواء ويديم تبعيتها لقرار أديس أبابا، ويحكم على دلتاها ووادييها بمصير دلتا الفرات ودجلة. فضلا عن تفجير آخر نطاقات جغرافيا السودان التي بقيت على مر الزمن موئل الباحثين عن السلام والابتعاد عن نطاق الصراعات.

تصر قيادة الجيش على الدمج السريع للقوات غير النظامية في حدود عامين في حين يطالب حميدتي بأن تمتد الفترة إلى عشر سنوات، كما يطالب بالسماح لقواته بإنشاء قاعدة جوية في المنطقة بين الحدود مع مصر وليبيا، لماذا وتحت أي تصور؟ إذا كان هناك حديث عن توحيد الجيش وإنهاء التنظيمات المسلحة غير النظامية فما معنى إنشاء قاعدة جوية للدعم السريع؟ وماذا يتبقى من السيادة للجيش الوطني؟ تدعي الرباعية الدولية الممثلة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وكل

من السعودية والإمارات البحث عن حل لتنفيذ توقيع الاتفاق الإطاري، الذي أعلن أركو مناوي قائد جيش تحرير السودان في دارفور وحاكم الإقليم الحالي رفضه له، ودعوته لقواته بالتجمهر في شوارع العاصمة لرفض الاتفاق.

لماذا تحتاج ميليشيا الدعم السريع كل ذلك الزمن؟ وخصوصا بعد تحصلها على مضادات الطائرات بمساعدة الإمارات فما الذي تريده الإمارات؟ هل هو تسهيل وتسريع إيقاع انفصال الشرق لتحصل على امتيازات في الأراضي بالشراء أو الإيجار تسمح بخلق مستعمرة لها تكون فرعا لدولة الإمارات في إفريقيا تعوضها عن حلم الوصول إلى نهر الجانج الباكستاني؟ هل هي خدمات تقدمها عربون صداقة للكيان الصهيوني الراغب بشدة في تمزيق ظهر مصر وقطع شريان النيل وجعله موضوع مساومة، وقطع طريق تطور السودان إلى وطن له هوية جامعة تحسبا للمستقبل؟ وضمن خطته جعل المنطقة من حوله كيانات عرقية ومذهبية صغيرة لا تشكل تحديا له أو قاعدة لدعم النضال الفلسطيني؟

دخلت السعودية على الخط عبر استخدامها الدعم السريع كقوات حرس حدود مع اليمن وفي مناطق متاخمة بين شمال اليمن وجنوبه منذ عام 2020، مع ما وفره ذلك النشاط من مدخول ضخم لتلك الهيئة العسكرية المالية الممثلة في قوات الدعم السريع بقيادة حميدتي. هل كان خافيا على السعودية ما يقود إليه ذلك من تضخيم وضعية الدعم السريع الإقليمية ودفعه لطموحات قائده السياسية؟ هل تناكف السعودية مصر وتنتقم للماطلة في تسليم جزيرتي تيران وصنافير بنقل مربع النزاع العسكري إلى المنطقة المحرمة في شمال السودان الذي يشكل العمق الاستراتيجي الأخطر والأهم لأمن مصر القومي؟ فماذا يفيد السودان من وقوع شعبه ضحية استخدام الميليشيات من قبل الكيانات الخليجية في تهديد مصر أو غيرها بتحويل أرض الشمالية إلى ساحة مستباحة؟ هل يقع إثراء الدعم السريع وتحويله إلى مؤسسة دولية النشاط ضمن جهود الوساطة السعودية لحل أزمة الانتقال في السودان؟ هذا السؤال الأخير يقع على عاتق المروجين لارتكاريا التدخل المصري من الإعلاميين والمثقفين السودانيين وعليهم أن يجيبونا كيف تقبلو وصمتو عن قيام الدعم السريع بتقديم خدمات عسكرية في السعودية، دون موافقة جهاز الدولة السودانية التي يحلو لهم كثيرا التمسح والتنطع بسيادتها وحياديتها كلما ظهر وجه مصر أو روسيا في أي موضع، رغم أن الدولتين تتبعان دوما الطرق الرسمية وتتعاملان مع جهاز الدولة السودانية التي نسي الكثيرون أن الجيش منذ الاطاحة بالنظام في 2019 هو ممثلها الوحيد طبيعيا ودستوريا، بفعل الشحن المستمر ضد المؤسسة أصبح على الجيش أن يبرر تحركاته ونشاطاته وكأنه قوة احتلال أجنبية.

تحاول الجزيرة والصحفيون المرتبطون بالمال الخليجي عادة إثارة النعرات ضد مصر، وخلط الأمور فيصبح تواجد الدعم السريع في مروي مشفوعا بتحريرها من الاحتلال المصري. فهل يعتقد هؤلاء أن ممارسة الجيش السوداني للسيادة عبر اتفاقيات التدريب المشترك مع مصر نوعا من التدخل في شؤون السودان؟ يقولون هذا وهم. يجلسون في حضرة أعداد لا تحصى من الوسطاء والرعاة الغربيين والسعوديين والإماراتيين فيما يقتصر دور مصر على مشاورات يجريها مسؤولون معها من وقت لآخر. فما هو المطلوب من القوى التي تقف وراء تدمير أخر مظاهر وجود الدولة السودانية عبر خلق جيش موازٍ، وعلى ماذا راهن عبد

الفتاح البرهان عندما وافق للدعم السريع على عمل إنشاءات حول قادة مروي الجوية أو بتسليم شحنات الأسلحة القادمة لهم من الإمارات؟ هل لا يمكن للعين أن تخطئ أن تحركات الدعم السريع تقنيا ودون موارية هي عملية انقلاب عسكري مدعومة ومسلحة من قبل أعضاء في الرباعية الدولية، التي يركن المعارضون إليها باطمئنان شديد؟

أما السؤال الذي يبذل النشطاء أبناء المنظمات الممولة كل جهدهم لكيلا يقرع عقول العامة من السودانيين فهو: ما هو مستقبل الديمقراطية وتداول السلطة في السودان في حال تفوق حميدتي وحسم الأمر لصالحه سواء بانقلاب أو عبر صندوق انتخاب وشراء أصوات وولاءات كما يفعل حاليا بكل الوفرة المالية التي تحت يديه؟ ماذا عن وحدة أراضي الدولة ووحدة جهاز الدولة؟ هل هي ثمن مستعدون للتضحية به من أجل مدنية الحكومة؟ هل إلى هذه الدرجة أصبحت المدنية نوعا من الهوس المقدس الذي يمكن تمرير أي مصيبة من خلاله؟

هذا جزء من الأسئلة المغيبة دوما في المفاوضات والبرامج والتسويات التي يرعاها الغربيون عموما في القرن الأفريقي، إنهم يخلقون عبر الإعلام والببغاوات الموالين لهم مناخا يحصر تصور الحلول في التراضي والتوافق والمحاصصة، والتي تتم دائما على حساب قوى مهمشة خفيضة الصوت سرعان ما تقلب الطاولة لاحقا بعد أن يكون الجميع قد خطو بعيدا في الطريق الذي يريده الغرب. بدأ هذا المسار حتى قبل رحيل البشير، منذ إقامة وزير ماليته لقرابة الشهر في واشنطن يفاوض الأمريكيين من أجل رفع العقوبات، فاضطروه إلى رفع دعم الخبز فانهارت الأرض تحت أقدام النظام خلال أسابيع. يتصور السياسيون أن ما أسقط البشير ونظامه هو فقط توق الشعب للحرية وسأمه من حكم العسكر والدكتاتورية هكذا تحب النخب الليبرالية ويسار الاستعمار تصوير الأمور بهذه الدرجة من السطحية، متناسين أن جميع الانتفاضات خرجت في أعاقب اختفاء الخبز ومقومات الحياة اليومية، لم تندلع مظاهرة واحدة عندما أعدم نظام الإنقاذ عشرات الضباط عام 2001 ولا حين قتل عشرات الأطفال المشردين في معسكر العيلفون. بل إن أقل فترات النظم دموية وأقلها تشددا هي التي شهدت انتفاضات عارمة. الطعام ومقومات الحياة هي ما تدفع الجماهير إلى الشوارع، وهي من تدفعهم اليوم إلى التخندق وراء القبيلة والعشيرة والإقليم. ليست المسألة في إقناع المتحاربين بأن (الجريمة لا تفيد) على طريقة البرامج التلفزيونية الساذجة وحيث يصور الغرب الأمور عبر نشطائه، هناك معطيات مادية ملموسة تخلق المسار الذي تنحدر عليه الأوضاع ولا نجاة إلا بتغيير المسار كليا، بمعالجة أصولها المتلازمة وأركانها.

تهوم النخب حول العدالة الانتقالية وعشرات القضايا الفرعية التي لا تشغل المواطن البسيط والتي لا تعصم الوطن من الانشطار، فهل سيوقف إعدام عمر البشير مثلا مسار انفصال الشرق؟ هل ستوقف محاكمة قيادات الشرطة والجيش المسير المرعب الذي تتحرك فيه البلاد الآن؟ المؤسف والمحزن هو تكرار سيناريو الإنهاك ذاته الذي تكرر في مصر وتونس وفي العراق خلال عام 2022، والذي شهد انتفاضة عارمة في العراق وحلا للبرلمان لكن عن ماذا تمخض كل ذلك؟

مجرد إعادة انتخابات وفضح بعض أطراف العملية السياسية ووعود بوقف قطار الفساد؟ وماذا بعد؟ في حالة السودان الوضع خطير للغاية بسبب

الحساسيات التاريخية بين الأقاليم والغبن الذي يظن كل إقليم أنه من نصيبه وحده، وهذا السلاح الكثير بيد المرتزقة والذي تحول بفعل أطراف الرباعية الدولية أنفسهم إلى دولة داخل الدولة.

يضع قائد الجيش شرطا واحدا لتفادي التعثر واستكمال الاتفاق يتضمن دمج الدعم السريع خلال عامين في القوات النظامية، فيما يضع حميدتي خمسة شروط من بينها إقالة وزير الداخلية وإقامة قاعدة جوية عسكرية له على الحدود المصرية الليبية، فترى من يحكم السودان اليوم؟ لا يبدو الحديث عن المناورات المشتركة بين الجيشين المصري والسوداني سوى نوعا من التعتيم والتضليل حول جوهر تحركات الدعم السريع، وحجرا يلقى من جانب السعودية والإمارات ضد مصر التي تمانع تسليم جزيرتي تيران وصنافير وتماطل في تصفية أصول الدولة المصرية وتمليكها لرأس المال الإماراتي، الذي اعتاد الكسب الخرافي والسريع من بيع مقومات الصناعة الكبري والموانئ فيها.

أصبح السودان الآن حقل ألغام وأصبحت العملية السياسية حبلا يرخى لكي تشده الأطراف الواقفة خلفها عند اللزوم، فهل تتصدى على الأقل الأحزاب التاريخية والجيران الحريصون على مصلحة السودان لرأب الصدع والقيام على مسار أكثر عدالة للإنسان البسيط وأقرب إلى التحقق والاستمرار من الاتفاقات والمواثيق التي تصنعها الرباعية الدولية على عجل لتحقيق مأرب خاصة لا تحسب حسابا لوجود السودان من عدمه، اتفاقات الترضيات والمحاصصة التي تعمق الشقوق وتكرس الأطماع وتهدر سلطة مركز الدولة وتبيع البشر للأكثر عتادا ومالا؟ ألم يكن ذلك المسار هو ذاته الذي رعته أمريكا والأمم المتحدة خلال الفترة من 2004 إلى 2012؟ ألم تكن توصياتهم بتقاسم السلطة قد أوجدت فوضى حتى إن جهاز الدولة انتفخ بوزارات ما أنزل الله بها من سلطان، ثم لم تقد في النهاية إلا إلى تشجيع من خرج من القسمة بلا منصب على ترس السلاح والزحف لانتزاع حصته؟ كما أذاقت من حاصصوا طعم أبهاء السلطة والمرور عبر بوابات صالات كبار الزوار في المطارات ليتحولوا من مجرد شركاء في السلطة إلى قادة دول كاملين؟ ألم توزع ريع البترول يمينا وشمالا تحت أقل شروط المراقبة ما فتح شهية الشريف والفاسد لإعلان المزيد من التمرد ليلحق ما فاته؟

ماذا عن فتح الباب للصهيوني للدخول والخروج؟ ترافقت أولى زيارات وزير خارجية الكيان للسودان بتدشين حملة إنترنيتية للتحريض على مصر لم يسبق لها مثيل، وتدشين عشرات المواقع التي تنشر الأكاذيب حول أصول المصريين بما ملخصه أطردوهم من وادي النيل فهم حثالة من الغرباء. هذا دون تطبيع على مستويات شعبية أو ثقافية، فأين يذهب السودان بعلاقة جيدة مع الصهيوني ودعاية للحرب مع مصر؟ تصوروا كادت تندلع حرب شعبية بين مصر والسودان ألقت بظلالها على مباراة كرة قدم تتناثر التهديدات بمذبحة للمصريين في الخرطوم، هذا فقط في أعطاف زيارة فماذا بعد فتح سفارة وتبادل سفراء؟ وهل ينفصل التحرك والهرولة نحو التطبيع عن الانهيار الماثل على كل الأصعدة في السودان؟ إنها سلة واحدة فسودان ضعيف ممزق هو الهدف، حسب الوثيقة التي نشرها الدكتور محمد سيف الدولة مطلع عام 2020، لم يكن أبدا التطبيع من أجل إنقاذ السودان من العقوبات، لم يشفع له التطبيع فقد صوتت أمريكا والإمارات على تمديد العقوبات على السودان. التطبيع هو من وجهة الكيان الصهيوني استحقاق منتزع لتثبيت كيانهم الهش والنيل من عزيمة المقاوم الفلسطيني بتجريده من عمقه العربي الداعم،

وتخريب معنوياته وثقته في تحقيق الانتصار. إنه ضرورة ملحة لتدمير الحواضر العربية من حولهم وحتى محاصرتها بعد تدميرها بمحيط إفريقي وأسيوي مدمر وممزق، ولم يأت التطبيع للسودان بخير على أي صعيد. ثم هل كان السودان منخرطا هكذا في الصراع مع الكيان الصهيوني ليدعي أيا كان بأن أزماته نتجت من معاداة الكيان وتكاليفها الباهظة؟ لنكن واقعيين لم يكن السودان دولة مواجهة كان ضمن المحيط الداعم للقضية، لكنه في أي مرحلة من الصراع لم يدفع كلفة بشرية أو مالية أو تنموية تذكر بحال، لكنه كان بحال أفضل عندما كان يقوم بدوره كمحيط داعم للقضية. لم يكن على الأقل مسرحا مفتوحا لنشاط الموساد، كان أكثر تماسكا داخليا وأقل توترا على حدوده وأقل فقرا وعوزا، هذا ما يجب ألا ينساه أحد. إن النشاط الهدام للرباعية الدولية التي تقدم إعلاميا ومن قبل النخب السودانية كرسول سلام وصانع استقرار في السودان، هي ذاتها التي تسببت في تطور الخطر إلى ما هو عليه الآن، وهي التي ساقت في اتجاه التطبيع بلي الذراع. فمخطئ من يعتقد أن الحراك السياسي والعسكري لدول الخليج ليس جزءا من استراتيجية الإمبريالية الأمريكية وذراعها إسرائيل للشعوب العربية والإفريقية.

بالأخير كما يقول المثل الشعبي هذا الجمل وذاك الجمال، فإذا كانت الاتفاقات التي تولد اتفاقات بعد اتفاقات قد قادت السودان ليصبح الشعب وقد وجد نفسه رهينة لجيش قطاع "خاص"، خلقته توجهات الإخوان المسلمين النيوليبرالية المنحطة ونمى من تدخلات ودعم التابع الخليجي والأصيل الأوروبي؛ فإن توزيع اختصاصات الدولة وأدوار الدولة وريع الدولة على طبقة من الوسطاء والمندوبين والمسلحين، الريع الذي يتأتى من تقاسم الربح مع طبقة التجار ورجال الأعمال، ذلك الربح المقتطع على حساب الغالبية الشعبية هو معادلة دائرة مغلقة ما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد.

- ليبيا المسرح التجريبي أو التطبيقي لمواصلة تدمير الوطن الكبير:

تجمع ليبيا بين مأساة الجمهوريات العربية وبين تدميرها، وبين إسقاط ديمقراطية الإمبريالية عليها وتنصيب قوى الدين السياسي، وبين اقتتال أمراء الحرب كمناكفة الديكة تحت جناحي الرخ الإمبريالي الغربي أو الناتو. وبمقدار ما أن ليبيا اليوم دمية بيد الغرب، إلا أنها جثة لم يعد التخلص منها سهلاً. فبعد تدمير البلد والاغتيال الوضيع للعقيد القذافي ونهب أرصدة وثروات ليبيا الجارية لم تعد الإمبريالية قادرة على تنصيب من تضمن بقائهم في السلطة عبر ديمقراطية الإمبريالية، ولا تضمن حتى تحالفهم مع بعضهم مخافة أن يبرز لها الشيطان القذافي مجدداً.

لذا جرى تأجيل الانتخابات منذ أكثر من عام ويتم الآن الإعداد لقانون انتخابي جديد، يسمح بمنع من لا ترغب بهم أمريكا وخاصة سيف الإسلام القذافي.

لذا تتلخص أزمة ليبيا في:

- عجز الإمبريالية بممثلها الشكلي الأمم المتحدة عن إجراء انتخابات مضمونة في ليبيا بعكس العراق، ففي العراق جرى اجتثاث البعث واجتثاث العروبة وتنصيب نظام تحميه طائفيته عبر إيران، بينما في ليبيا لا يوجد من يضمن وصول أدوات الغرب لأن اجتثاث الطرف العروبي لم يحصل كما يجب.
- وبالتالي العجز عن تجديد البوابات الليبية كما كان الأمر في عهد القذافي، لمنع المهاجرين/ المغامرين الأفارقة من التدفق إلى القارة العجوز والشبقة معاً،

ومنع الإرهابيين من التدفق إلى الصحراء الإفريقية.

مخطئ من يعتقد أن الغرب الإمبريالي نادم على مذابحه وتدمير أي بلد عربي أو غير عربي، بل ما يقلق الغرب هو توليد أنظمة ضامنة لمصالحه.

هل هذا لأن بقايا الرفض العربي موجودة ولم يحصل اقتلاعها التام؟ لا ندري.

- **المغرب:**

لو صح تحديد رباعي تطويق الوطن الكبير: تركيا من الشمال الشرقي والنظام السعودي في الجنوب والكيان في الوسط ونظام المخزن في الغرب. وسواء كان هناك تنسيق مباشر أو غير مباشر بين أطرف هذا الرباعي، فإنها جميعاً لم تغير تموضعها ضد العروبة. لذا جرى انسحاب الاحتلال الفرنسي من المغرب بعد أن ضمن تنصيب نظام له مصلحة في عدم التحرر والوحدة مع الجزائر، بل مناصبتها العداء. فلا يمكن تصالح نظام التنصيب مع نظام التحرير ولا مع العروبة. ولعل ما رشح من السلطات الفرنسية عن دور الحسن الثاني في تخصيص غرفة للموساد للاطلاع عياناً على مؤتمر القمة العربي يبين أن مهمة هذا النظام، هي الإجهاز على الأمة وليس فقط العداء للثورة الجزائرية ونظامها لاحقاً.

وإذا كان الكيان الصهيوني يشكل خطراً أكثر على الأنظمة المحيطة بالأرض المحتلة، الأمر الذي يزعم حكام هذه الأنظمة أن ذلك الخطر دفعها لمهادنة أو التطبيع مع الكيان، فإن هذا لا ينطبق على المغرب لا من حيث الجغرافيا ولا من حيث وجود موقف وطني ولا عروبي لنظام العمالة والتبعية. وبالطبع تتضح الصورة بتطبيع هذا النظام مع الكيان، وتمكينه من بناء قواعد عسكرية في المغرب موجهة ضد الجزائر وتغلغل الكيان في الاقتصاد المغربي وتغلغل الكيان في الاقتصاد المغربي، آخر ما أعلن عن ذلك إدخال أربع شركات للعدو الصهيوني إلى الصحراء الغربية ناشئة في مجال تكنولوجيا الأغذية بقيادة شركة «Halman Al-dubi Technologies» لإنتاج طعام موجه إلى الأسماك عالي البروتين انطلاقا من النفايات العضوية والحشرات، علاوة على الاعتداء القمعي ضد رافضي التطبيع. كيف لا والنظام المغربي هو من تجرأ على التمسك بزرع الكيان الصهيوني في منظمة الاتحاد الإفريقي، لولا جدار الصد الذي شكلته الجزائر وجنوب أفريقيا مما أدى إلى طرد الكيان الصهيوني من منظمة الاتحاد الإفريقي وسحب صفة "العضو المراقب" منه في فبراير 2022، وأعيدت الكرة ثانية في فبراير 2023 عندما تم طرد وفد الكيان من القمة الأفريقية الـ36، وكان مرة أخرى للجزائر وجنوب أفريقيا شرف هذا الموقف.

يعترض النظام الحاكم في المغرب على إعادة سورية إلى جامعة الدول العربية، ويشترط لذلك مقايضة قبوله بانتزاع موقف من سورية حول الصحراء الغربية، وهو في ذلك منسجم مع طبيعته اللاوطنية والضد عروبية؛ فقد قايض سبتة ومليلية وباقي الجزر المستعمرة من الإسبان، مقابل اعتراف حكومة هذا البلد بإبقاء الصحراء الغربية ضمن سيطرة الدولة المغربية.

- **الجزائر:**

يدخل النظام الجديد في الجزائر في السياسة العربية والدولية بشكل حذر ودقيق، وقد يرتد هذا إلى السمات الطبقية للسلطة الحاكمة من جهة ولدرايتها بدرجة الاستهداف التي تتركز ضدها. وهنا يمكن تلمُّس المسافة بين مواقف السلطة وبين ما أراده الشارع الجزائري من رفض التجديد لبوتفليقة وذهابه إلى الانتخابات بدون ذلك الميراث.

ويبدو أن السلطة الحالية تقف في برزخ بين التفاعل مع التوجه الشعبي الجزائري، وبين المحدودية التي تُفرض عليها من:

- طبيعة السلطة طبقياً.
- الواقع الرسمي العربي المضاد لأي قرار سيادي.
- الوضع الدولي المتغير ببطء.

لذا استضافت الجزائر مختلف الفصائل الفلسطينية وهي تعلم مسبقاً أن لقاء هؤلاء أشبه بلقاء بروتوكولي بين دول وليس بين مكونات حركة وطنية هدفها التحرير، وبالطبع لم يترتب على اللقاء أي تطور على صعيد ترميم البيت الفلسطيني. ولا يختلف انعقاد مؤتمر القمة في الجزائر كثيرا عن المؤتمر الفلسطيني إذ أوضح للجزائر محدودية الدور الذي يمكنها أن تلعبه في الواقع الرسمي العربي، بصفتها برجوازية محلية لا تطمح لدور قيادي على الصعيد العربي وذلك لأن الواقع لا يواتي من جهة، ولأنها هي نفسها أكثر قطرية مما هي عروبية. لذا، رضي النظام الجزائري بعدم حضور سوريا، والذي يعني تكريس هيمنة أنظمة النفط على القمة بمنعها سوريا من جهة، وعدم مشاركة بعضها ومشاركة البعض بمستويات ثانية من السلطة.

إن درجة جذرية النظام في الجزائر لا تؤهله للعب دور قيادي في الوطن العربي يواجه هيمنة السعودية وتخاذل النظام المصري، ولذا لم تقم بأية خطوة لتصحيح مسار أو تجاوز جامعة الدول العربية. لكن فرص تحسن دخل الجزائر من الريع النفطي مكنت السلطة من تنشيط الصناعة هناك، ومن لعب دور في سوق النفط الدولية وخاصة في العلاقة مع الدول الأوروبية حيث لم تتورط ضد روسيا. ولكن السلطة الجزائرية تذهب باتجاه العضوية الرسمية في تجمع بريكس وهذا يقود بالطبع إلى تجذر في سياستها المحلية والدولية، ويُفارقها على معظم الأنظمة العربية التي من الصعب استدارتها نحو الشرق.

وبدوره، فإن محور الإمبريالية وتوابعها لا يعتقون الجزائر تنهج طريقاً خارج نطاق التبعية، ولذا يسلحون ويدفعون النظام المغربي للتصعيد ضد الجزائر إلى درجة احتمال انفجار معين يُفضي بحده الأدنى إلى إعاقة تطور الجزائر. وبالطبع يغطي نظام المخزن عدائه للجزائر بسبب الصحراء الغربية وهي تغطية زائفة ليس لأن نظام المغرب تابع وإذا ما وسع سيطرته الجغرافية سيوسع حدود تبعيته، بل لأن النظام نفسه يعلم بأن الصحراء عصية على الخضوع بمعنى أن قرار الاستقلال عن نظام تابع وصهيوني هو ذاتي وليس فقط بسبب الدعم الجزائري.

- **تونس:**

رغم مرور قرابة عامين على إزاحة الرئيس قيس إسعيد لنظام الدين السياسي وبقايا الحزب الحاكم السابق وفرانكفونيي فرنسا، إلا أن البلد لم يستقر بعد. فلا النظام السابق استسلم هو ومؤيديه ولا النظام الحالي ترسخ.

وقد نلخص المرحلتين في التالي:

ترافق تغيير الوضع في تونس مع استلام قوى الدين السياسي للسلطة عبر الانتخابات. لم تغير السلطة شيئاً لا في التوجه الاقتصادي ولا المبنى الاقتصادي المحلي ولا في العلاقات بالنظام الرأسمالي العالمي. أما على المستوى العروبي فقد تبنى النظام سياسة التقرب من أنظمة الدين السياسي وخاصة قطر، ومن هذه البوابة كان له دور أكبر من حجمه في تحالف الإمبريالية وإرهابيي الدين السياسي وخاصة ضد سوريا، حيث استضاف مؤتمر "أصدقاء سوريا أل 41 دولة". وفتح باب التطوع للجهاد المزدوج في سوريا للرجال والنساء، وحينما أسقط إسعيد سلطة هؤلاء كانت سوريا قد

أخذت في التعافي الانتصاري.

لقد رفع إسعيد عدة شعارات مقبولة لكن نصيبها في التحقق كان باردا:

- فرغم أحاديثه البلاغية ضد التطبيع، إلا أن أحداً لم يلمس مواقف جذرية في هذا المستوى.
- ورغم شعار محاربة الفساد واستعادة أموال الدولة من الفاسدين إلا أن خطى حقيقية في هذا المستوى لم يُعلن عنها.
- كما أنه لم يحقق ما هو ملموس في دور حركة النهضة في اغتيال الشهيدين البراهمي وبلعيد.

كما لم يحصل تحسن على الوضع الاقتصادي الذي وعد به الرئيس مما قاد إلى نتائج باهتة للانتخابات ولبرلمان ضعيف التمثيل. وفي خطوة للتوجه غرباً، ربما في حلم المساعدة سواء الخليجية أو الغربية شاركت تونس في مؤتمر دعم أوكرانيا!

لذا بوسعنا القول بأن عملية شد حبل بين النظام وأمريكا تدور حالياً، فما أن أعلنت تونس عن تحسين علاقتها بسوريا حتى وصلتها تعليمات أمريكية بعدم الرضى عن النظام. وقد يكون هذا ما دفع إسعيد إلى قرار رفع العلاقات الدبلوماسية مع الشام إلى إعادة السفير وخاصة أن هذه أصبحت موضة اللحظة من قبل الأنظمة العربية. كما يمكن فهم خطوة إسعيد على أنها مؤشر على تراجع/ تراخي قبضة الإمبريالية واستغلال المحيط لهذا التراخي، بل وصول العلاقات الدولية أو انتقالها من فرصة التراخي إلى فرصة أوسع أي انتقال النظام العالمي إلى تعددية قطبية.

ملاحظة1: ليس شرطاً أن يغطي المشهد كافة الأقطار العربية إلا إذا كان هناك تطور لافت في هذا القطر أو ذاك.

ملاحظة2: لم نُدرج الكيان في التحليل كي لا يبدو وكأنه جزء من الوطن الكبير.

ملاحظة 3: غطى هذا التحليل زمنيا حتى يوم 14 نيسان 2023.

د.موفق مُحادين يكتب:

الماركسية والموقف من القومية والصهيونية

لم تستهدف الماركسية وخاصة في الحالة العربية، كما استهدفت عبر التزوير والتشويش فيما يخص الموقف من المسألة القومية ومن الصهيونية وما يعرف بالكيان الإسرائيلي، حيث تم تصويرها كتصورات عدمية إزاء هاتين القضيتين، فماذا عن ذلك وفقا للحيثيات والوقائع التاريخية نفسها فضلا عن المقاربات النظرية التي تضع الماركسية موضوعيا في قلب الصراع مع الحركة الصهيونية وتمثلاتها، كما تظهر اهتمامها الكبير بحق تقرير المصير القومي.

ماركس – أنجلز، الأعمال المشتركة:

تبدأ كتابات ماركس حول ألمانيا ١٨٥٠ وتنتهي تحت عنوان واحد محدد هو الوحدة الألمانية «فعلى العمال ليس فقط استكمال إنشاء الجمهورية الألمانية الواحدة، التي لا تتجزأ بل محاولة تحقيق ذلك ضمن الجمهورية الممركزة القصوى للقوة بين أيدي الدولة ورفع أي حاجز بين المقاطعات».

كما سمحت الدراسة العميقة للمسألة الأيرلندية والبولونية، ولدروس الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الأمريكية، سمحت لماركس وأنجلس بإدخال تعديلات هامة على نظريتهما في المسألة القومية، فإذا كانا، في البداية، يجعلان التحرر القومي رهناً بتحرر الطبقة العاملة الاجتماعي فإنهما صارا لاحقاً، بعد تحليل خبرة ثورات ١٨٤٨ – ١٨٤٩ البرجوازية، يؤكدان أيضاً على الارتباط الجدلي، ارتباط نجاح الثورات الاجتماعية وتحرر البروليتاريا بحل المشكلات القومية الملحة.

لينين:

تنطوي كتابات لينين في «التطور اللامتكافيء» و «الدولة والثورة» و»الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» على التأكيد على الدولة القومية.

وفي كلمته أثناء المؤتمر الثامن للحزب (١٩١٩) سجل لينين انتقاداً صريحاً وقوياً لليساريين بسبب عدميتهم القومية مؤكداً أن إسقاط البرجوازية سيؤدي إلى تعجيل هائل في انهيار سائر أنواع الحواجز القومية دون إنقاص التمايز أو التحالف بين البشرية، وكان يرى أن «تشكيل دولة قومية هو الاتجاه الذي تتبعه كل حركة قومية... فيما تمثل الدولة غير المتجانسة قومياً حالة متأخرة أو استثنائية.

ولعل أهم المساهمات اللينينية على الإطلاق في المسألة القومية هي مساهماته في المؤتمر الثاني لأممية الشيوعية وخاصة حِواراته وردوده على «روي» الهندي وكارل راديك وسيراتي من إيطاليا.

الأممية والقومية:

سجلت الحركة الأممية موقفاً مبكراً وثابتاً من المسألة القومية، عبرت عنه الجمعية العامة للأممية الأولى في جنيف (١٨٦٦) عندما أكدت على حق تقرير المصير في بولونيا، وأيرلندا، والبلقان. كما عبر عنه المؤتمر الاشتراكي الأممي عل لندن (١٨٩٦) بتأكيده على حق تقرير المصير القومي.

وفي المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية «الثالثة» أكد المؤتمر على دعم الحركة القومية وليس الاعتماد فقط على النشاط الثوري للشيوعيين «اقتراح روي الهندي» واقترحت رئاسة المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية، بعد اختتام المناقشات حول المسألة القومية والكولونيالية، تشكيل لجنة خاصة لصياغة الأطروحات المتعلقة بهذه المسألة».

كما ندد المؤتمر باقتراحات البوند، حول «الاستقلال الذاتي الثقافي القومي لليهودي» رافضاً اعتبار اليهود أمة وأعاد المؤتمر السابع للكومنترن (١٩٣٥) التأكيد على فكرة التحالف مع القوى القومية.

ستالين، الصياغة الثانية:

بالرغم من إشارات الصياغة الستالينية لمسألة الأمة لكتاب كاوتسكي، إلا أن هذه الصياغة اعتبرت أهم مساهمة ماركسية حول هذه المسألة حتى الآن.

وقد أقرها الحزب ١٩١٣ بعد تعديلات هامة أجراها لينين كموضوعة نظرية صالحة لاشتقاقات سياسية ونظرية لاحقاً.

وجرى طباعتها في كتاب خاص باسم «الماركسية والمسألة القومية» تمييزاً لها عن كتاب كاو تسكي «الاشتراكية الديمقراطية والمسألة القومية».

وتتلخص في أن الأمة ليست ظاهرة اقتصادية من ظواهر الرأسمالية كما روجتها التصورات الرائجة لبعض القوى الشيوعية التقليدية، بل ظاهرة تاريخية اجتماعية، تضرب جذورها في التشكيلات ما قبل الرأسمالية، ولكنها تجد في الرأسمالية كسوق مركزي اجتماعي، ما يسمح لها بالتشكل كظاهرة سائدة.

وبالتدقيق في القراءة الستالينية من المسألة القومية لا نجد أي تعارض يذكر، فستالين يميز بين مرحلتين لتشكل الوعي القومي: الوعي القومي بذاته ما قبل تشكل الأمة والوعي القومي – الطبقي، بذاته ولذاته في حال الاستكمال القومي لشروط الأمة الرأسمالية.

أما العامل النفسي، فقد توقف لينين عند أهميته ولكنه لم يدرجه في العوامل الأساسية للأمة....

بعد هذا الاستدراك فإن الأمة كما صاغها مؤتمر البلاشفة هي محصلة لتفاعل عدة مقومات أساسية هي العلائم الأربع السابقة التي تصبح القومية بموجبها أمة وهي:

١. الأرض:

فالأرض تمثل القاعدة المادية لتشكل الروابط الاقتصادية بين أبناء الشعب، وميدان نشاطهم وتطورهم. وأخيراً فإن من الأهمية بمكان الأخذ بالحسبان أن الأرض القومية ليست مجرد بقعة جغرافية، وإنما ترتبط عضوياً بالنمط الاجتماعي للأمة التي تعيش فوقها.

٢. اللغة:

ليس ثمة في العالم لغة قائمة بحد ذاتها. فما يوجد فعلاً ويتطور هو اللغات القومية بما هي محصلة ثقافية - اجتماعية، وليست إلا تجليات مختلفة للماهية الواحدة للغة – كونها أداة للتفاعل الاجتماعي الثقافي بين الناس. ومن المهم، على طريق رسم سياسة لغوية علمية، استجلاء العلاقة بين الماهية العامة للغة وبين خصوصياتها القومية، وأسباب ظهور اللغات المختلفة، ونقد الجذور المعرفية والاجتماعية للأخطاء أو للتشويهات المعتمدة في فهم العلاقة بين اللغة والمجتمع، اللغة والوعي والتفكير والنفسية.

ولعل الفيلسوف الألماني هردر أبرز من تصدى لدور اللغة في تحديد خصائص الأمة ذاهباً إلى القول: بأن كل أمة تتكلم كما تفكر وتفكر كما تتكلم.

٣. السوق:

إن توحيد السوق الرأسمالي هو الذي ينقل القومية «بعواملها» الثلاثة قبل الرأسمالية إلى الأمة «بالعوامل الأربعة معاً» فوحدة السوق الرأسمالي بما تعنيه من تطور في مستوى تقسيم العمل والتبادل وتشكل طبقتين أساسيتين رأسمالية مستغلة، وأخرى مستغلة تبيع قوة عملها، هي التي تشكل العامل الأخير، العامل الاقتصادي، الذي ليس إلا نتيجة للتفاعل التاريخي للعوامل السابقة، لما يميز القومية تمييزاً جدلياً تاريخياً وليس ميكانيكياً عن الأمة الموحدة، وقيمة هذا العامل تكمن أيضاً في أنه الوحيد الذي يوحد المستغلين والمستغلين في طول البلاد وعرضها حول علاقات إنتاج متطورة تعزز

من وحدة النسيج الاجتماعي للأمة ككل، بعد أن ساد الاقتصاد المغلق ما قبل الرأسمالي وسادت الطبقات المتفككة عبر مجموعة كبيرة من الأسواق الصغيرة الضيقة.

٤. الطبقة القومية

لما كان المجتمع منقسماً إلى طبقات، فإن واحدة منها تمارس في وقت ما الدور المسيطر سياسياً كطبقة قومية. ويؤكد ماركس – أنجلز أن هذه الطبقة في عصر الرأسمالية المتطورة هي الطبقة العاملة.

فعندما تفقد البرجوازية قدرتها على أن تكون قوة قومية تغدو الطبقة العاملة الذات الحقيقية للأمة حيث تتجسد فيها كل قوة الأمة وكل قدرتها على التطور إلى الأمام.

٥. حق تقرير المصير القومي:

كما صاغ ماركس الخطوط العامة للتصورات الماركسية من مسألة الأمة، في عصر انتصار الرأسمالية، فإن تعديلات لينين على مساهمه ستالين، كما مر سابقاً، وغيرها من القراءات والملاحظات والمقالات المتعددة التالية، تستكمل القراءة والتصورات الماركسية للمسألة القومية في عصر انتصار الامبريالية أو الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية.

فإذا كان ماركس – أنجلز قد توقفا بسرعة عند الجانب الرجعي في هذه المسألة، وفيما يخص سياسة الأمة الظالمة، دون أن يتعرفا على الآليات الداخلية لهذه السياسة عند البرجوازية الألمانية إزاء عمال باريس، كما عند البرجوازية الفرنسية إزاء عمالها وعمال العديد من القوميات التي قهرتها.

فإن المساهمة اللينينة الأساسية هنا، هي التعرف على الضرورة القومية عند الأمم والشعوب المظلومة بدلالة دينامية، وطبيعة الإطار القومي للبرجوازية الصاعدة للأمم الظالمة.

لقد تحدث ماركس – أنجلز – كاو تسكي كما تحدث ستالين عن ضرورة القومية لانبثاق وانتصار البرجوازية في المراكز المتطورة واعتبروها مرحلة إيجابية، أما لينين فتناول هذه الضرورة في البلدان الأقل تطوراً، وميز بين القومية في بلد أنجز ثورته القومية الديمقراطية البرجوازية وآخر بحاجة لذلك.

فعصر لينين هو عصر الرأسمالية في أعلى مراحلها، وهو عصر قانون التطور اللاامتكافئ الذي يجعل من حرب الأسواق حرب الأمم الظالمة وحرب التحرر القومي والميل للانعتاق، حرب التحرر الاجتماعي أيضاً.

كتب لينين بعنوان (الثورة الاشتراكية وحق الأمم في تقرير المصير): «إن هدف الاشتراكية ليس فقط القضاء على تجزئة البشرية إلى دويلات وعلى أي انعزال بين الأمم، وليس فقط التقريب بين الأمم بل اندماجها... وكما أن البشرية لا تستطيع أن تدخل عهد القضاء على الطبقات إلا بعد فترة انتقالية تجتازها ديكتاتورية الطبقة المظلومة، فإن البشرية لا تستطيع أن تتوصل إلى اندماج الأمم الذي لاؤمناص منه إلا بعد فترة انتقالية من التحرير التام لجميع الأمم المظلومة، أي حرية انفصالها».

الماركسية: المسألة اليهودية والصهيونية

عندما أعد ماركس هذا الكراس عام ١٨٤٣ فلم يكن موجهاً لمناقشة الظاهرة اليهودية بل لنقد اليسار الهيغلي وهو ما ينفي عن هذا الكراس نزعاته الهيغلية.

وقد أختار دراسة (برونو باور) كنموذج لهذا اليسار فحيث أعتقد باور أن المسألة اليهودية مسألة دينية تحل بإلغاء الدين اليهودي والمسيحي على حد سواء وتحقيق العدالة عبر الإلحاد، أكد ماركس أن القضية ليست قضية دينية بل اجتماعية.

وكان مهتماً بالحديث عن روح اليهودية وجوهرها بما هي روح الرأسمالية وجوهرها الذي لا يتجلى في الأسفار والكتب المقدسة القديمة بل في المجتمع الرأسمالي المعاصر فالمال هو إله إسرائيل الحقيقي وقومية اليهودية هو قومية رجال المال.

وبالمحصلة فإن سر اليهودية يكمن في سيكولوجيا المنفعة الشخصية لليهودي العملي (رأي فورباخ أيضاً) فاليهودية لم تكن إلا التعبير الإيديولوجي للسمات الاجتماعية التي ميزت اليهود على امتداد تاريخهم، وكانت نتاج ظروفهم الاجتماعية، من جهة، والوسط الجغرافي، السياسي من جهة ثانية.

وبينما عبرت الكاثوليكية عن مصالح النبلاء العقاريين والإقطاعيين وعبرت (الطهرانية) أو (البورتيانية) عن المصالح البرجوازية أو الرأسمالية، عبرت اليهودية عن مصالح طبقة تجارية في عهد ما قبل الرأسمالية.

ولا تفسر محافظة اليهود على دينهم، المعبر الصادق عن مصالحهم الاجتماعية، كمجموعة متميزة نتيجة لإخلاصهم الديني، بل بالعكس، فإن محافظتهم كمجموعة اجتماعية متميزة هي

التي تفسر تعلقهم بالإيمان.

وعلى حد تعبير كاوتسكي: « فإن الله أصبح عند يهود فلسطين مصدراً هاماً لتأمين رزقهم». وهو ما يفسر أيضاً دور الحاخامات في تكريس العزلة الاجتماعية وبالتالي الوظيفة التاريخية.

هذا عن رأي ماركس أما أنجلز، فاليهودية القديمة بالنسبة له مجموعة من القبائل الهمجية ومؤرخين يهود سرقوا كل تاريخ الشرق وأساطيره ونسبوه لتلك القبائل التي لم تكن أكثر من محميات عسكرية تؤجر نفسها تارة لمصر وتارة لفارس.

ولم يختلف رواد الفكر الشيوعي اللاحقين عن نظرة ماركس – أنجلز السابقة...فقد أكد لينين أن ما يسمى بالقومية اليهودية، إيديولوجيا بربرية رجعية تحاول إعادة التاريخ إلى الوراء... كما أتخذ موقفاً قاطعاً ضد كل إشكال التنظيم والتعبير اليهودي الخاصة.. بما في ذلك اتحاد العمال اليهود (البوند) الذي كان يدعو لاستقلال ثقافي ذاتي والذي اعتبره لينين اتحاد حاخامات وليس اتحاد عمال.

وتحت تأثير لينين، نددت الأممية الشيوعية ١٩٢٠ بفكرة الأمة الوطنية وبالحركة اليهودية الشيوعية في كل مكان خاصة في فلسطين.

وكان ستالين، بموافقة لينين، قد أصدر كتابه الهام (الماركسية والمسألة الوطنية) رداً على اليهودي بوبر الذي أعتبر في كتابه (المسألة القومية والاشتراكية الديمقراطية) اليهود أمة... ويذكر هنا أن العديد من الاشتراكيين الطوباويين الأوائل مثل شارل فورييه أخذوا مواقف أكثر تطرفاً من اليهود واليهودية ودعوا إلى التخلص منهم بطردهم خارج أوروبا.

ولعل أبرز الماركسيين (اليهود) الذين عمقوا قراءة ماركس، هو أبراهام ليون بتأكيده على مسألتين وذلك في كتابه (المفهوم المادي للمسألة اليهودية):

1. سر اليهودي في وظيفته كمرابي متجول (تاجر ما قبل رأسمالي) وليس سر الوظيفة في دينه.
2. استمرار اليهود بدعم التاريخ لا بالرغم منه وبسبب الشتات لا بالرغم منه أيضاً.

الماركسية والصهيونية

لعل التصورات الماركسية ظلت وما تزال التصورات الوحيدة التي اعتبرت كل خاص يهودي هو خاص السيد العالمي، الإقطاعي ثم الامبريالي، وأن الحل الحقيقي لما عرف بالمسألة اليهودية وأخذ صورته المسوغة في الكيان الصهيوني الراهن، هو الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها ليس كيهود من طينة طبقية أو قومية أو دينية محددة بل كمواطنين يعبرون عن قومية أو طبقية المجتمعات التي يعيشون فيها.

ورغم أن هذه التصورات كانت واضحة ومتوفرة للقارئ العادي إلا إنها تعرضت لحملات واسعة من التشكيك والالتباس ساعد في تكريسها الموقف السوفياتي المفاجئ من قرار التقسيم ودفاع بعض القوى الشيوعية عن هذا الموقف منذ عام ١٩٤٧.

وقد وجدنا من الأنسب ومن الضروري في الوقت نفسه الوقوف عند هذه المواقف بما في ذلك التصورات السوفياتية الرسمية، التي آثرنا عدم متابعتها بعد قرار التقسيم، حيث أن وظيفة هذا الدراسة إلقاء الضوء على الموقف السوفياتي الصائب إلى ما قبل هذا القرار، الذي كان ينسجم برأينا مع الموقف الماركسي وتوجهات الكومنترن، كما سيلي:

وإذ قمنا بذلك، متقصدين نشر بعض الفقرات من بيانات الكومنترن والخارجية السوفياتية بالاعتماد على العرض الهام الذي قدمته مجلة الطليعة المصرية ودروزة والدكتور ماهر الشريف وسميح سماره فليس من أجل تبرير التصورات الماركسية وإنصافها، بل من أجل إعادة إنتاج هذه التصورات في الواقع الذي بات بحاجة إلى ذلك هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى.

فليس ثمة حل آخر لهذه المسألة في بعديها اليهودي والعربي إلا الحل الماركسي، حيث تذهب الحلول اليهودية والعربية السائدة إلى تكريس إسرائيل كخاص امبريالي بصرف النظر عن نسبة القوى التي تخدم هذا الطرف أو ذاك، فيما تذهب الحلول الدينية إلى إعادة إنتاج المسألة اليهودية بما يكرس إسرائيل كظاهرة من ظواهر الإيديولوجيا الطائفية المجسدة في دولة عرقية عدوانية، من جهة، وبما يفرغ الصراع في المنطقة من مضمونه الاجتماعي التاريخي من جهة أخرى.

لينين والصهيونية:

إذا كان ماركس قد خاض حربه ضد اليهودية على الجبهة الفكرية، فإن لينين اصطدم مع اليهودية خلال العمل من أجل إقامة حزب اشتراكي ديمقراطي مركزي لعامة روسيا حيث ظل

البوند «الاتحاد العام للعمال اليهود ١٨٩٧» يدعوا للاعتراف به ممثلاً وحيداً وقومياً للعمال اليهود على أساس الاستقلال الذاتي القومي الثقافي داخل كل بلد، فقد اعتبر لينين فكرة وجود أمة يهودية، فكرة رجعية في جوهرها، ليس فقط عند إتباعها الثابتين من الصهاينة بل وعند أولئك الذين يحاولون توفيقها مع أفكار الاشتراكية الديمقراطية من البونديين.

وأضاف لينين في معرض نقده لمطالب البوند بالاستقلال الذاتي القومي الثقافي لليهود القاطنين فوق أراضي الإمبراطورية الروسية بأن الأجدر بدعاة هذا الشعار أن يصطفوا مع الحاخامات لامع الاشتراكيين الديمقراطيين.

وحول فكرة الدولة اليهودية التي كان الصهاينة يرجونها في أوساط العمال اليهود الروس كتب لينين في الايسكرا:»إن الدولة اليهودية التي يزعمون أنها ستكون قاعدة انطلاق الثورة اليهودية لن تكون في الواقع سوى دولة برجوازية في خدمة البرجوازية الأوروبية بمفردها أو بمساعدة الزعماء العالميين من الصهاينة الذين سيلعبون دور خادم لرأس المال الأوروبي». ولذلك، وبمبادرة من لينين رفض المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي (١٩٠٣) اعتبار البوند ممثلاً أساسياً للبروليتاريا اليهودية.

كما عارض لينين عام ١٩٠٦ فكرة قبول ممثلين عن حزب «الصهاينة الاشتراكيين» الذي كان قد تشكل في مناطق جنوب روسيا في بداية عام ١٩٠٥ في عداد وفد الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي إلى مؤتمر الأممية الثانية العالمي الذي كان يجري التحضير لعقدة في صيف عام ١٩٠٧ في شتوتغارت. «وقد علق لينين على القرار الذي أصدرته اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي – الديمقراطي الروسي قائلاً: إن القرار المتخذ والقاضي برفض قبول الصهيونيين في عداد الاشتراكية الديمقراطية، حتى ولو كانوا يسمون أنفسهم بالصهيونيين الاشتراكيين، قد حلل إيديولوجية وتكتيك مختلف المجموعات « الا شتر ا كية » الصهيونية. وانتقد النظرية القومية المعادية للماركسية التي يتبناها الصهيونيون الاشتراكيون»

وكرر الموقف نفسه خلال الاجتماع الذي عقده المكتب الاشتراكي العالمي في تشرين الأول ١٩٠٨ ولذلك فإن الحل الحقيقي للمسألة اليهودية هو في الاندماج، فالعداوة نحو الفئات السكانية اللامتجانسة عناصر غريبة وتند غم مع بقية جماهير الآهلين. هذا هو الحل الوحيد الممكن للمسألة اليهودية وينبغي علينا أن نؤيد كل ما ييسر إزالة الانغلاق اليهودي.

الأممية الثالثة:

شهد المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية الذي انعقد في آب ١٩٢٠، أول حوارات الأممية حول الصهيونية وقضية فلسطين، وصدر عنه أول نص رسمي للأممية الشيوعية حول ذلك من خلال النص المتضمن في موضوعات حول المسألة الوطنية ومسألة المستعمرات الذي تقدم به لينين وأقره المؤتمر بعد إدخال عدد من التعديلات، أبرزها: «يتوجب علينا أن نفضح باستمرار عملية الخداع التي تمارسها القوى الاستعمارية بمساعدة الطبقات صاحبة الامتيازات في البلدان المضطهدة، على جماهير الشغيلة في العالم أجمع وفي الأقطار المتخلفة خاصة، حيث يتظاهر الاستعمار بمنح بعض الدول استقلالها السياسي لينشئ شتى مؤسسات الدولة والحكومة التابعة له عملياً تبعية كاملة، اقتصادياً، مالياً، وعسكرياً وكمثال صارخ على عملية الخداع هذه – التي تمارسها على الطبقة العاملة في البلدان المضطهدة قوى «الحلفاء» الاستعمارية وبرجوازيات هذه البلدان نذكر مشروع الصهاينة في فلسطين حيث تعمل الحركة الصهيونية بحجة إنشاء دولة يهودية في فلسطين التي يشكل اليهود نسبة لا تذكر من سكانها على إخضاع السكان الأصليين من الكادحين العرب لنير الاستغلال الانجليزي. إن اتحاد الجمهوريات السوفياتية هو السبيل الوحيد إلى خلاص القوميات المستضعفة والمقهورة، في الوضع العالمي الراهن.

المؤتمر الثاني من الاممية الشيوعية

وفي الواحد والعشرين من أيلول ١٩٢٠، عقدت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية دورة، ناقشت فيها الطلب الذي تقدم به حزب بوعالي تسيون للانضمام إليها،

وطلبت منه التخلص من الميول القومية الصهيونية حتى توافق على طلبه وعندما وافقت اللجنة على قبوله كعضو مراقب احتج الشيوعيون الإيطاليون على ذلك ونجحوا في استصدار قرار من اللجنة يدعو الحزب إلى حل نفسه وتغيير أسمه وقطع صلاته بالاتجاهات الصهيونية وإدانة المشاريع الصهيونية في فلسطين.

هكذا اتخذت الأممية الشيوعية، منذ ظهورها، موقفاً مناهضاً للصهيونية واشترطت على المجموعات اليسارية اليهودية، الراغبة بالانضمام إلى صفوفها، أن تتخلى عن الأفكار الصهيونية وتعلن إدانتها للمشروع الصهيوني في فلسطين. ومن جهة أخرى كانت الأممية الشيوعية قد دعت، في مؤتمرها الثاني، جميع الأحزاب والمنظمات الشيوعية، في البلدان المستعمرة والتابعة، إلى تقديم كافة أشكال الدعم لنضال الحركات القومية التحررية المناهضة للامبريالية. وكان ذلك يعني، في ظروف فلسطين المحسوسة، أن انضمام حزب العمال الاشتراكي إلى صفوف الأممية الشيوعية لا يمكن أن يتم إلا بعد تخلي الحزب نهائياً عن مقولة «الصهيونية البرولتيارية». واعترافه بالطبيعة الثورية للحركة القومية العربية واستعداده لدعم نضالها المعادي للامبريالية والصهيونية.

العروبة

ياسر شعبان يكتب

عن العربية والعروبة وأشياء أخرى

فكرة العروبة قضية لا علاقة لها بالانتماء لإقليم نجد «الواقع في وسط الجزيرة العربية» ثقافيًا أو عرقيًا فالموضوع أكبر من جلافة ساكني تلك الهضبة الصحراوية القاحلة .

لأن القضية ومكمن الخطر في التركيز المستمر على عدم قدرة العرب «بالمعنى الحديث للمصطلح « على الإنتاج في أي مجال حداثي وأننا لسنا عربًا مع إضافة الكليشيه الساداتيّ «العرب جرب» ما يفضي إلى الفرقة والتشظي وتعميق حالة الدونية الثقافية والعرقية المرتبطة بتلك الهوية الجامعة التي أهداها لنا التاريخ عبر جدل المنطقة الذاتي.

وطالما أننا لسنا عربًا سيحق لأصحاب الثقافات الفرعية « التي لم يتم هضمها بالكامل لتعرقل مشاريع الحداثة والوحدة العربية داخل الأقطار القزمية» أن تُعيد إحياء هوياتها الفرعية وتقيم عليها دعاوي سياسية بالانفصال والاستقلال. فيصير جبرا علينا أن نعترف بوجود منطق ما! في دعاوي بعض النوبيين ودعاوي بعض السيناوية التي تتلمس طريقها على استحياء ودعاوي بعض أقباط المهجر وبعض أهل مطروح المتوقعة . ويصبح وقتها ومع التداعي الحر والمسيطَر عليه من أقبية مخابرات منظومة النهب، أنه من حق كل عائلة ممتدة أن تستقل وتنتزع جزء من الفضاء الجغرافي للوطن المُفتت لتصنع به كيانها السياسي بحجة امتلاكها لثقافة مغايرة قزميّة ومزاج مختلف أو شفرة وراثية متفردة ...إنه أمر غاية في الخطورة وإن كان الاستعمار يصب في طريق دعم مثل هذا التفتت الثقافي والهوياتي واللغوي فإن وجود لغة جامعة مثل العربية تغطي حيز جغرافي شاسع تصبح عامل غاية في الأهمية لمقاومة تلك السياسات فاللغة العربية هي نحن هي بقائنا واستمرارنا وهي سلاحنا لمقاومة الهيمنة الاستعمارية.

والحجة الأخرى هي أنه ليس هناك حضارة عربية من الأساس بدعوى أن العلماء المنتمين لها كانوا مرفوضين من الثقافة السائدة ومن ثم تم تكفيرهم وقتل الكثير منهم بمعنى أن إنجازهم لم يتحول إلى ثقافة سائدة كذلك يُقال أن أغلبهم بل كلهم لا ينتمون إلى العرب عرقيًا وذلك تأكيد لنفس خرافة أن العرب هم بدو نجد وتهامة والحجاز حصرًا .

وهناك سؤال يمكن أن يُقرب المعاني ويوضحها هل هناك حضارة يمكن أن نسميها الحضارة الإغريقية ؟؟

رغم أن أغلب فلاسفتها تم التنكيل بهم ورفضهم تكفيرا وقتلا.

كذلك حضارة عصر النهضة الأوروبية أغلب فلاسفتها كانوا رافضين لسياق عصرهم وثائرين عليه وكانوا في نفس الوقت مرفوضين ومنبوذين وتم التنكيل بهم تكفيرا وقتلا وتعذيبا .هل ذلك ينفي وجود إنجاز حضاري للإغريق أو الأوروبيين؟ ورغم ذلك فالحضارة الإغريقية ماتت في بلادها ولم يتم استيعابها إلا في الحضارة العربية التي استوعبت مفاهيمها وهضمتها ثم طرحت إنتاجها الخاص

وبالتالي فان رفض المفكرين العرب لسياق المجتمع العربي ورفض المجتمع لهم، هو نفس رفض مفكرين عصر النهضة لسياق المجتمع الأوروبي ورفض المجتمع الأوروبي القروسطي لهم لا ينفي الإنجاز الحضاري العربي و ما جعل هناك فرق حقيقي بين الحضارة العربية والأوروبية في عصر النهضة هو ظهور علاقات الإنتاج الرأسمالية في أوروبا ما أدى إلى تحول النشاط العلمي والفلسفي إلى مواضيع ذات عائد اقتصادي حقيقي وجزء من أدوات الصراع السياسي التناحري على السلطة بين الطبقة البرجوازية الصاعدة والطبقة الإقطاعية المسيطرة .

أما عن انتزاع صفة العروبة عن علماء الحضارة العربية في القرون الوسطى، فلابد أن نسأل عن معنى العرب كمصطلح تاريخي فالتوقف بمفهوم العرب عند بدو نجد والحجاز وتهامة يفضي إلى مناقشة التاريخ بشكل انفعالي، به الكثير من نزق المراهقين، فإسقاط معايير مرحلة تاريخية على أخرى تسم معالجتنا التاريخية بالذاتية التي ليس لها معنى ولا تقدم شيء.

فالعروبة والعربية أمر يتجاوز حتى الفتوح العربية فاللغة العربية هي نتاج ضخم ومشترك لكل حضارات المنطقة وليس بدوها.. فبدوها كانوا فقط عامل محفز لنشرها على نطاق أوسع عبر كيان سياسي ضخم وإن كان ما يدفعنا للترفع عن الانتماء العربي ما أُلصق بالفتوح العربية من همجية أو شراسة أو دموية وسواء كان هذا مجرد ادعاءات أو حقائق تاريخية، فإن حركة التاريخ وتكون الدول أو تفتتها لا تحمل أي قدر ما ولو ضئيل من الرحمة فهذه هي طبيعة الأمور بالإضافة إلى أن الامتزاج العرقي في المنطقة كان يتم على قدم وساق منذ أقدم العصور وما كان النتاج الثقافي المشترك إلا أثر من آثار الاندماج العرقي وسببا للتوسّع فيه وتعميقه حتى من قبل الفتوح العربية التي سرعت تلك العملية وأوصلتها لمداها الأقصى .

أما الحضارة المصرية على سبيل المثال فقد كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة إبّان الغزو الفارسي والصراع معه لاحقا، وسقطت جثة خائرة القوى مع غزو الإسكندر ثم مع الغزو الروماني ودخلت في طور التحلل مع اعتناق المصريين للمسيحية وبالتالي لم يكن ليوتوبيا الحضارة المصرية القديمة وجود حتى يأتي العرب بعد ألف عام فيدمروا معالمها .... و حاليا لا وجود لما يمكن أن نطلق عليه «مصريين صرف» لأن من بداية التاريخ لم يتواجد مثل هذا الشيء فحتى في مصر القديمة كان التسلل والغزو من نطاق الصحاري المحيط «ذات نمط معاش الترحال» لا ينقطع وكان أعنفها الغزو الهكسوسي والتسلل الذي سبقه والذي ميز عهد الاضمحلال الثاني ، وأسرى الحروب المصاحبة لغزوات وفتوحات أباطرة الدولة الحديثة والتسلل الليبي الذي اجتاح غرب الدلتا وشمالها لدرجة أنهم كونوا الأسرة الثانية والعشرين بزعامة شيشنق الأول، ثم أعقب ذلك التغلغل الإغريقي في النسيج المصري مع دخول الإسكندر. كل هذا قد تم على قاعدة أساسية أن مصر الكلاسيكية مصر ما قبل التاريخ أرض الوادي والدلتا كانت أرض مهجورة في العصر المطير وأن من عمّرها كانوا مهاجرين من كل أنحاء هضبة الصحراء الكبرى الشاسعة ومهاجرين من الهضبة الشرقية وصحراء سيناء والجزيرة العربية والجنوب الزنجي أو المتزنج ... ما يعني أن مصر منذ البداية وهي بوتقة ضخمة لانصهار الأجناس حتى بعد الفتوح العربية أصبحت مصر مصب لأعراق المنطقة والعالم ولا يوجد مواطن مصري إلا وبه نسبة ما من كل الأعراق التي دخل واستوطنت مصر. وللعلم وعلى سبيل المثال فرشيد مثلا كانت محل استقرار الكثير من أهل البوسنة والهرسك « البوشناق» الذين هاجروا مع فتح العثمانيين مصر واستقروا واختلطوا بأهلها وكثير من أهل شمال الدلتا ذو جلود شقراء وعيون ملونة ، ذلك بفعل حركات الاستيطان طويلة الأمد كتلك والقادمة من جنوب أوروبا .

فلا محل لدعواي النقاء العرقي «الصرف» المفتعل خاصة في

مصر ولا محل لدعاوي الثقافة التي أزهقت روحها الفتوح العربية كل ذلك غير صحيح وافتراء وتدليس على التاريخ.

وكما أن العربية ثقافة وليست عرق وليس لها حيز جغرافي محدد فهي إن سادت في حيز ما انضم تلقائيا إلى البدن الأصلي ووسع من نطاقه.

فابن خلدون على سبيل المثال الذي يُأمزغ أصله البعض حاليا وينزع عنه صفة العروبة كان يفكر بالمنطق العربي لأزمات المجتمع العربي الذي يتجاوز مضمونه حدود مجتمع البداوة والترحل كان يفكر بمنطق أهل مصر وتونس والمغرب العربي وسوريا الكبرى والعراق واليمن كان يفكر بمنطق الحضارة العربية المستقرة والمنتجة وكان يُعيد التفكير في حركة التاريخ والإنسان في هذا النطاق الضخم كان يُنظر لنشأة الدول وانهيارها تبعا للمعطيات التاريخية لهذا النطاق الجغرافي.

فالثقافة واللغة ظواهر حية ودائما ما يوجد ثقافات تقوم بابتلاع ثقافات وتهضمها وتُكوّن ثقافة أكبر وأثرى وهذا ما فعلته العربية بثقافات المنطقة الفرعية والمشتتة والمهزومة . فإن كان الله قد بلبل لسان الخلق حول برج بابل وشتتهم فإن العربية قد أعادت توحيد هذا الشتات اللغوي .

وما قاله ابن خلدون عن العرب لم يكن يقصد به إلا الأعراب الرحل كان يتحدث عن مزاج البدو وليس عن الشعوب المستقرة و هو كان واقع في تناقض بين الاستقرار والترحل.

والحضارة العربية هي حضارة الإقليم العربي الكبير في العصور الوسطى أهل الجزيرة والعراق وسوريا ومصر والمغرب و السودان والأندلس وفارس وأواسط آسيا المسلمة وكل من استوعبته العربية كلسان وثقافة صبغت نمط الحياة أيا كان مكانه وأيا كان عصره ...فالفرس على سبيل المثال ليس لهم أي معنى حضاري خارج نطاق صيرورة الحضارة العربية و كان من الممكن أن يصبحوا جزء من العرب لو حدثت هجرة ضخمة مثل هجرة بني سليم وبني هلال إلى المغرب والتي عربته ولكن ذلك لم يحدث.

هنا يتم مناقشة التاريخ من منطق جدلي وليس من قوالب مثاليه ثابته و القصد أن العروبة ليست قضية مطلقة ولا ظاهرة أبدية أزلية بل هي خاضعة لآليات الانتخاب التاريخي خاضعة لإمكانية النمو واحتمال الموت خاضعة للصدف التاريخية وإشراق التغيرات الكيفية المفاجئة من تراكم الكم عبر القرون بمعنى أنه مع الزمن لو أن الأفارقة استوعبتهم العربية وتبنوها لأصبحت إفريقيا جزء من الإقليم العربي الكبير مثل ما حدث في الصومال وموريتانيا وجزر القمر الذين التحقوا بالإقليم العربي الكبير وكذلك مثل ما يحدث في تشاد التي قد تنضم مع الزمن له لما للعربية من دور مهم في الوساطة اللغوية بين القبائل المختلفة.

وبالتالي فالعربية أوسع بكثير من كل القوالب الجافة المغلقة التي يتم مناقشة القضية من خلالها فالحضارة العربية واللغة العربية تقدم تجربة متفردة في تاريخ الحضارة الإنسانية فهي نتاج مشترك لأقدم الأمم والحضارات على الأرض ومنجزها الحضاري في القرون الوسطى كان دال على طبيعة تطورها وخط سيرها القادم في التاريخ لأنها استوعبت في نطاقها شعوب وأعراق ونطاقات جغرافية متنوعة وكان المزاج العام لكل هذه الشعوب يتصف بالانسجام والتناغم فلا مكان لثقافة مصرية أو ليبية أو عراقية أو مغربية أو .... أو .... إلخ. وإن وجدت اختلافات فما هي إلا تفريعات ثقافية وتنويعات على نفس اللحن الثقافي الكبير فببساطة كان من الممكن وتضاعف ذلك الآن أن يتزوج المصري من عراقية ويتعايش معها بنفس العقلية والتقاليد والعادات ولا يشعر معها بأي اختلال أو اختلاف أو غربة لكنه يشعر مع الصينية أو الأوروبية أو الهندية على النقيض. كذلك عندما كتب الغزالي في الشرق ورد عليه بن رشد في الغرب كان الأمر يتم كأنه يتم في إطار دولة واحدة رغم أن الوحدة السياسية لم تكن متحققة.

أما كون دول أوروبا لغات مختلفة لكن قيمهم واحدة و أسلوب تفكيرهم واحد حتى نمط حياتهم واحد فلم تعد اللغة عائق لوحدتهم لأن المشترك بينهم أصبح أكثر عمقا من حاجز اللغة فليس هذا مثال يُقاس عليه ، ذلك لأن درجة التطور الحضاري عندهم أعلى وبالتالي هناك ظواهر تم استيعابها وهضمها في مجتمعات المدن ومجتمعات الزراعة الحديثة الأوروبية لكنها مازالت ترتع عندنا في بلهنية التبعية والتخلف كالثقافات الفرعية التي تستخدم كعتبة لتدخلات منظومة النهب

في الإقليم لتفتيته أكثر وأكثر فنحن شعوب تم تدمير مشاريع تحديثها وتم اختراقها بكل ما يمكن من أدوات لكي يتم تسكين اللحظة الحضارية الآنية ومن ثم تفكيك كل ما تم إنجازه في مرحلة التحرر لإعادتنا لمراحل تاريخه كنا قد تجاوزناها نسبيا ..

وعلى القياس فالمشترك بيني وبين السوري ساكن المدن أقرب إليّ من المصري ساكن الريف والريفي المصري أقرب إلى الريفي السوري من أهل المدن في مصر والبدوي المصري يفهم البدو في كل مكان من عالمنا العربي أكثر من أهل المدن في إقليمه . ولذلك فالتحجج بمسألة أن أهل الجزيرة بدو وأهل مصر زُرّاع لتأسيس استحالة الوحدة أمر غير علمي ذلك لأن الجزيرة العربية مليئة بالمدن الساحلية والواحات الزراعية التي تقترب في مزاجها من فلاحي مصر وسوريا والعراق ولو اطلعنا على رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف نشهد وصف دقيق لما شهدته منطقة غرب الخليج في السعودية من تحولات اقتصادية واجتماعية كادت أن تفضي لثورة تقدمية لو تصاعد المد القومي وانتصر وكان مزاج أهل المدن النفطية الساحلية تلك أقرب إلى مزاج أهل المدن في كل الإقليم العربي الكبير أكثر من قُرب مزاج الريف المصري مثلا للمدن المصرية في نفس الفترة. أما ما أوقف ذلك فهو تدخلات منظومة النهب لوأد مشروع الحداثة والوحدة العربي.

كذلك لم نكن عربا منذ الأزل ومن يروج لذلك ما هو إلا جاهل بالخطوط العريضة والتفاصيل الدقيقة لتاريخ الشرق الأدنى القديم وهذا الخطاب هو محض خطاب سياسي مبتذل لا قيمة له ولا يصمد للنقد والتفنيد... فالشعوب التي سكنت الشرق القديم والتي كونت حضاراته العظيمة كانت إلى ذلك الوقت شعوب لثقافات ولغات منفصلة إلى حد كبير ولم يربطها أي شعور بالانتماء الموحد أو الثقافة الواحدة أو اللغة المشتركة التي لا تحتاج إلى وسطاء بشريين من المترجمين لتحقيق التفاهم .

لكن عروبة المنطقة جاءت بالتدريج وبالجدل الداخلي للمنطقة و بانهيار مراكز وقيام أخرى تقود الإقليم في مواجهة صلف الإمبراطورية الرومانية فيخطئ من يظن أن التعريب قد بدأ مع الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي بل إن تلك الحركة لم تكن إلا النقلة النوعية لتراكم كمي استمر قرون ففي اللحظة التي انهارت فيها مقاومة مصر للرومان واستسلم العراق للسيطرة الرومانية ثم الفارسية كانت سوريا الداخلية تقاوم وتنتصر في بعض الأحيان على الإمبراطورية الرومانية وكانت مملكة تدمر التي امتدت حتى ابتلعت الدلتا المصرية لفترة من الزمن، خير مثال على استمرار المقاومة في تلك المنطقة تحديدا في نفس الوقت التي كانت قد ماتت فيه في كل من مصر والعراق. وقد ميز هذا المثلث الداخلي الواقع بين الفرات والبحر المتوسط انفتاحه على صحاري وواحات وهضاب الجزيرة العربية التي شكلت له خزان لا ينضب من الموجات المتلاحقة من الهجرات البشرية التي تميزت بحيوتها العالية بعكس شعوب الوديان الزراعية التي أنهكتها تطاول أزمنة الاستعباد والقهر ولنا في ظاهر العمر الذي نازع الخلافة العثمانية في حكم فلسطين والذي تحالف مع على بك الكبير في مصر مثال من التاريخ الحديث على تتابع هجرات القبائل من الجزيرة العربية مُشكلة قيادات حيوية جديدة فقد هاجرت قبيلة بني زيد إلى الشام في القرن السابع عشر ..

وبالتالي كان من الطبيعي أن تتولى سوريا الداخلية قيادة العمليات في مواجهة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية وأن تسود ثقافتها ولغتها ومنطقها بعد أن ماتت كل قدرة على المقاومة في المنطقة بعد سبعة قرون من الاستنزاف الروماني ثم البيزنطي ..بالإضافة إلى أن قبائل النبط خلال القرن الذي سبق الفتح العربي قد انتشرت بشكل كبير على حواف مصر الشرقية.

فعروبة المنطقة لم تكن أزلية كما يروج البعض ولم تُنجز بتحطيم روح الحضارات القديمة كما يروج البعض الآخر ولكنها كانت عملية جدلية طبيعية وسعت من ثقافة المركز الذي تولى عمليات المقاومة للإمبراطورية الرومانية بعد أن مات الجميع فهي تلقفت المنطقة وهي تحتضر تقريبا ومنحت شعوب الإقليم كله صفحة جديدة من الحياة لتكتب فصلا رائعا وخصبا من فصول الحضارة الإنسانية.

ذلك ما يفتح الأفق مستقبلا لمزيد من تعريب كثير من الشعوب ذلك في حال نشوء مركز عربي قوي مستقل عن منظومة النهب العالمية حيث يصبح التعريب سلاح من

أجل مقاومة الهيمنة في يد من يحمله .. خاصة من شعوب قارتنا السمراء ..

وإلصاق الانتماء العروبي على المصريين القدماء على سبيل الثمال بغرض مد ظاهرة العروبة تاريخيا عبر الزمن السحيق هو محاولة غير علمية وغير موضوعية وهو من قبيل إسقاط أزمات ومتطلبات الواقع علي الماضي ... فالعروبة هي ظاهرة تتشكل ولم تأخذ صبغتها وملامحها النهائية بعد ..وإن كان هناك تشابك حضاري وتشابه بين أمم الشرق القديم فهذا أمر طبيعي بحكم التأثير المتبادل والهجرات الممتدة المتداخلة من صحاري إيران حتي الأطلسي في الأزمنة القديمة ...و القصد أن العروبة ظاهرة تاريخية و ليست ظاهرة أزلية ...فالعروبة كفكرة سياسية اجتماعية حديثة و كمنطلق لتأسيس قومية كبري ووطن واحد ظاهرة تاريخية حديثة تطلب ظهورها توافر عدد من الشروط الموضوعية التي لم تكن متوفرة في الأزمنة القديمة ..... و التداخل بين الشعوب القديمة في الشرق كان أمرا طبيعيا. فقبل نشوء الدول الكبرى بجيوشها وقلاعها وحدودها وجماركها وتحصيناتها، كان تيار الهجرة لقبائل عصر الجمع والصيد والرعي والزراعة بالعصا لا يتوقف ولم يتوقف بعد ذلك وإن حُصر بما تسمح به حالة الدول من ضعف وقوة وتداخل الأفكار الدينية وتشابهها أمر طبيعي لوحدة الشروط الموضوعية للحياة وتشابهها وإن عبرت كل حضارة عن تميزها النسبي . هذا فضلا عن أن الهجرات والتأثيرات لم تقتصر علي ما يحدث داخل هذه المنطقة الممتدة من صحاري إيران حتي الأطلسي ولكن تيارات الهجرة منها و عبرها وإليها امتدت في كل الاتجاهات من أعماق إفريقيا ومن أصقاع أوراسيا العظمي .وإن كانت الأبحاث اللغوية قد أثبتت الصلات بين اللغات العراقية السورية و الجزيرية وبين المصرية فقد أثبتت أيضا الصلات بين اللغات العروبية كما أطلق عليها علي فهمي خشيم وبين الشجرة اللغوية الكبرى الهندوارية كما حاول لويس عوض في بحثه في فقه اللغة العربية ... وإن جذرنا الأمور فإنه لا قوميات من الأساس فكل شعوب الأرض المتجاورة متشابهة عرقيا وثقافيا ومؤهلين لإنبات قومية جديدة .. وما القومية إلا تكتيك سياسي بورجوازي، لذلك كل ما أود طرحه هو أن العروبة ليست قديمة ..عروبتنا بمفاهيمها ومنطلقاتها وغايتها ليست قديمة وإنما هي طرح فوقوي لتكتيك افضل لمواجهة الاستعمار القومية تكتيك حديث وتبدي لتطورات جذرية في بني المجتمعات «العربية».... ولو وإن أردنا جدلا أن نجد قومية «سورية عراقية وإيرانية «كبرى واحدة لوجدنا لها جذورفي اللغة والدين والميثولوجيا والعرق والتاريخ والجغرافيا ولو رغبنا في إثبات ذلك علي وادي النيل الأسود لفعلنا ولو أردنا قومية عامه للبحر المتوسط لفعلنا ... إن الأزمة تبدأ عندما تذوب الحواجز بين الماضي والحاضر .. فنقوم بإعادة إنتاج الماضي بشكل متحيز لدعم فكرة معينة من الممكن دعمها بشكل أكثر ثباتا لو استدعينا التاريخ بشكل أكثر موضوعيه. ..... ووجهة نظر تلك لا تحمل تنصل من العروبة والقومية ولكن تحاول وضع التوصيف في موضعه الزمني المحدد .. فتوصيف المصريين الحاليين عربا لا خلاف عليه في إطار الدفع في سبيل تشكل قومية جديدة وليس إحياء لقومية ترهلت وضعفت وماتت كما يفعل «الكميتيين» وهم أنصار القومية المصرية القديمة ... أما توصيف المصريين القدماء بالعرب فهذا توصيف غير علمي بالمرة ولا أعرف له حيثيات تصمد للنقد والتفنيد ؟!!. ولا أبغي غير توصيف الظاهرة في حالتها المتحركة ... وهنا يُطرح سؤال، لو كان الفرس قد تعربوا وكان الأتراك قد تعربوا وكان الأفارقة تعربوا وكان عبد الرحمن الغافقي انتصر في معركة بواتيه وكانت الأندلس مازلت تنطق بالعربية هي وصقلية وجنوب إيطاليا وتعربت أوروبا بفعل الفتح هل كان كل هؤلاء سنلصق بهم العروبة كتوصيف أزلي أم ماذا ؟..... لا أدري معني لعلمية أو موضوعية أزلية العروبة ... إن العروبة ظاهرة تاريخية تتشكل وليست أزلية كروح الله.

فما عروبة المغرب « العربي حاليا « إلا نتاج هجرة بني هلال وبني سليم كما أن المغرب العربي لم يكن له عمق استراتيجي يتعارض مع محتوى الثقافة العربية الاسلامية يقوم بالضغط لاسترجاعها كما كانت أوروبا المسيحية تضغط لاسترجاع إسبانيا وصقليه وجنوب أوروبا أما الفرس فلو لا الثورة العباسية ضد بني أمية التي أعلت من شأن الشعوبية الفارسية وأعطت لها مساحة للتمدد وغياب أي هجرات كثيفه إحلالية من قبائل جزيرية لتعربت إيران

ولصارت هي المشرق العربي الأقصى .... فليس من المعقول أن تكون شعوب المغرب عربية وهي تبعد أكثر من٥٠٠٠ كيلو عن المركز الكلاسيكي للعرب في حين أن إيران الملاصقة لنفس المركز ليست عربية ... أما مصر فقد ظلت تتحدث القبطية ولفترة طويلة جدا حتي بعد الغزو العربي وقد غمرت مصر هجرات عربية كبيرة قبل الحكم العربي وبعده كما أن روح مصر قد تم انهاكها تماما من قبل كما وصفنا سابقا، عكس فارس. فكان تغيّر اللغة والدين للمرة الثانية أمر هين .... هل السودان الأفريقي عربي ؟ فلو لم يتدخل الاستعمار لفرض خط عرض٢٢كحد فاصل لانتشار العروبة والإسلام ولو كانت إمبراطوريه مصر الأفريقية استمرت ولم يجهضها الاحتلال البريطاني لقامت بدورها في تعريب وادي النيل كله بما فيه اثيوبيا. تلك المهمه التاريخية الضرورة لو كانت أُنجزت، هل كنا سنقول علي قبائل الدنكا والفور النوباويين وغيرها عرب منذ القدم . ؟؟ الصوماليون المنتمون للوطن العربي حاليا هل هم عرب ...؟ليسوا عربا بل هم قومية منفصلة مشتتة بين أثيوبيا وكينيا والصومال ... لكنهم يتعربون كما يتعرب التشاديون .

كل ما سبق يؤكد لا علمية أزلية العروبة ... وإنها ظاهرة ديناميكية جدلية غير ساكنه وغير مثالية .

ولذلك فالعروبة ليست قومية عرقية ولكنها أفضل استراتيجية مرحلية لمواجهة منظومة النهب ذلك الطرح يحررها من استاتيكيتها المثالية فلا أزلية فيها ولا أبدية وإنما هي ظاهرة تاريخية تنمو بالجدل معرضة للتطور في كل الاتجاهات ومعرضة للانقراض كاحتمال قائم وهي كأي ظاهرة بنت الضرورة والجدل .. فمن انتمى لثقافتها ولغتها ومنطقها الداخلي وجغرافيتها الممتدة المتجاورة وحمل قضايا شعوبها ومشروعهم الحداثي ودورهم التقدمي في التاريخ صار عربياً...

فهي كظاهرة في عصر يطرح ضرورة المواجهة الشاملة مع منظومة النهب وما التحق بها عضويا من منظومات وكالة محلية تحتاج إلى معالجة جديدة وتنظير جديد يحولها من نسقها المغلق الضيق الساكن إلى نسق مفتوح متفاعل يتسع باستمرار هاضمة في جدلها كل القوميات الفرعية التي تدور في فلك إقليمنا العربي.. ولمصطلح « العرب « دلالتين ،فهناك العرب كمصطلح تراثي تاريخي دال علي سكان الجزيرة العربية من بدو رحل وأهل حضر في مرحلة تاريخية سابقة «قبل وبعد أحداث الغزو العربي « وهناك العرب كمصطلح سياسي حداثي دال علي شعوب الوطن العربي المعاصرين.

و ما يعنينا الآن «أي في زماننا الحالي الملبد بغيوم التبعية والتخلف « هم هؤلاء المحدثين العرب والذي يتجاوز فيهم مصطلح العروبة هذا المعني الأحفوري القديم لأنه «أي اللفظ « نفسه قد شحن بمضامين حداثية تجاوزت بمراحل المضمون القبلي الرعوي الذكوري الرجعي الذي يتضمنه اللفظ بمعناه التراثي والذي يُستخدم كثيرا لإلحاق كل نقيصة نفسية وحضارية وقيمية بكتلة الشعوب العربية والتي تنتمي أغلبها وذلك استنادا للشواهد التاريخية والآثرية بشكل ساحق لأمم زراعية « المصريين /العراقيين/السوريين» مرتكنة علي تراث حضاري يتجاوز تاريخيا نشأة وظهور العرب التراثيين أنفسهم .

إذا ..فإن العرب الحاليين ليسوا امتدادا خالصا لهؤلاء التراثيين بقدر ما كان التراثيين هم أيقونة وحدوية تم استخدامها في سياق سياسي حداثي « خلال حقبة التحرر الوطني العربي والتي تولي قيادتها القوميين « لا أكثر و يمكن مع التأصيل التاريخي استبدالهم كأيقونة بما هو أكثر عمقا ورسوخا وفائدة ..

فالعروبة كثقافة وكلغة هي منتج تم تطويره علي مدي زمني طويل و بالمشاركة في منطقة شديدة الخصوبة الحضارية امتدت من جبال زاجروس إلي برزخ السويس مع إضافات جوهرية من الحضارة المصرية اللصيقة جغرافيا ثم تدفقت من أكثر النقاط بعدا عن هيمنة إمبراطوريتي الرومان والفرس « المدن التجارية والزراعية الداخلية والبعيدة عن الساحل السوري « فلا يوجد في تاريخ الكون ما ظهر مكتملاً.. ولكن تشكلت الظواهر والكيانات والهيئات تدريجيا بالتراكم الطفيف والتغيّرات النوعية الناتجة عن ذلك التراكم الأولى. كذلك القوميات لا تظهر مرة واحدة وليس لواحدة منها جذورأبدية ولكن تتشكل تدريجيا وفق توافر شروط موضوعية متنوعة.

كذلك ينمو الإحساس بالوحدة النفسية بين شعوب متجاورة عبر

وحدة أداة التواصل وهي اللغة ووحدة معيار الحكم وهو القانون أو الشرع أو العرف أو كل ما سبق.. كذلك تراث من العمل أو الكفاح المشترك ضد عدو واحد... كل ذلك يخلق مع التجاور الجغرافي عوامل الوحدة النفسية أي شعور الفرد هنا أن الفرد في الإقليم المجاور أقرب له من أي فرد أخر في العالم ذلك الشعور الذي يصل بصاحبه أن يعتبر ذلك الآخر ليس آخر وإنما هو جزء من ال (نحن) وليس جزء، من ال (هم).

ولكل قومية بؤرة تركيز وتشكل وتمدد في المكان والزمان وفي حال القومية العربية فقد تركزت وتشكلت تاريخيا حصرا في العصر الأيوبي والمملوكي وجغرافيا عندما اتحدت مصر والشام في مواجهة عدو مشترك الصليبيين والتتار ... وتعمقت سمات الوحدة النفسية من لغة ومعايير وعمل مشترك...

لقد تشكلت بذور القومية العربية الحديثة في العصر المملوكي... ولقد كان العيب الأكبر في تلك الدولة أنها اكتفت بدور الترانزيت في التجارة العالمية وبالتالي لم تطور جيش فتح بري مثل الدولة العثمانية ولا أسطول سطو حربي مثل البرتغال أو الإسبان واكتفت بجيش متأخر بمقاييس العصر لخفارة طريق التجارة... لقد كانت القيادة المملوكية منفصلة حقا عن القاعدة الشعبية... وقد شكل الإقطاع العسكري والترانزيت التجاري عقليتها الجيوسياسية.. وسبب ضيق أفقها السياسي...

في الوقت الذي كان على تلك البؤرة أن تنطلق لصبغ مجالها الحيوي بصبغتها.. وكانت أفريقيا خاصة الساحل الشرقي والتي كانت لتشكل الطريق العربي لاكتشاف منابع النيل.. هي المجال الحيوي الأول بالإضافة إلى مجال الشمال الأفريقي وباقي المشرق العربي... لكنها لم تقم بذلك وتركت ذلك قوة هامشية كالعثمانيين، الذين فرملوا انطلاق العرب لعصرهم الحديث.

أما اللغة العربية بنسختها الفصحى فهي تقدم وسيلة للتواصل الوجداني بين ملايين البشر على مساحة جغرافية واسعة ومتصلة وتملك القدرة على الانتشار والتمدد في أفريقيا لتصبح لغة شعوب الصحراء الكبرى أيضا ... تلك اللغة هي الرابط الفوقي الذي يعطي إمكانية لوحدة سياسية اقتصادية مرتقبة بين تلك الشعوب لتحقق الوحدة الوجدانية والثقافية عبرها ..ولذلك فالتمسك بالفصحى مع تبسيطها وتطويرها الدائم هو الضامن الوحيد لاستمرار العربية كأداة من أدوات مقاومة الهيمنة في مواجهة المحاولات المستمرة لتعميق اللهجات الفرعية لتحويلها إلى لغات منفصلة بجانب محاولات إحياء اللغات القديمة رغم استحالة ذلك مما قد يؤدي مع الزمن لانفصال وجداني بين شعوب الإقليم العربي إن عملية التشظية المتعمدة هي سمة من سمات منظومة النهب أما التركيم فهو طريقنا لمقاومتها فمن يدعو للاستخدام الدارجة أو إحياء اللغات الميتة نقاومه بالمحافظة على الفصحى وتطويرها خاصة أن العربية في صلبها هي مصب للغات الإقليم العربي القديمة من مصرية وسريانية وأرمية ويمنية وحبشية ورومية وفارسية فهي عبر تاريخها عبرت عن ميلاد لغة عالمية من لغات فرعية وهذا منحى تقدمي فيها لا يتكرر مع أي لغة أخرى .

واللغة كأداة لمقاومة الهيمنة كان من عوامل ثم تداعيات ظهور الدول القومية في أوروبا على قاعدة من علاقات الإنتاج الجديدة أن أفسحت اللغة اللاتينية « اللغة الرسمية للكنيسة والعلم والفلسفة » الطريق أمام نهوض غير مسبوق للغات القومية فكُتب بها الأدب والعلم والفلسفة وتُرجم إليها الكتاب المقدس وكان نهوض تلك اللغات كبديل عن اللاتينية الجامعة مظهر من مظاهر القوة وتحرر للشعوب من سيطرة الكنيسة والخرافة والجهل وتداعي إيجابي لعلاقات الإنتاج الجديدة . لكن في وضعنا الحاضر و في وطننا العربي، هل الدعوة إلي النهوض باللهجات أو اللغات المحلية والقطرية أمر ممدوح أو مجدي بمعيار تحقق أفضل لمشروع تحررنا وحداثتنا ..؟؟؟

الإجابة على مثل هذا السؤال لابد أن تنطلق من احتياجات المستقبل ... وعلى قائمة تلك الاحتياجات يأتي «البقاء» على رأسها ... نعم البقاء .. فنحن شعوب مهددة في بقائها وبقائنا مرهون بتحررنا وتحررنا مرهون بفك القيود عن عجلة تقدمنا الاقتصادي والاجتماعي المشدودة إلي دولاب عمل منظومة النهب العالمية وذلك يشترط عامل قاعدي وهو إنجاز تكتل جيوسياسي اقتصادي « يمتد على محاور . محور النيل ومحور دجلة والفرات ومحور الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط « ليوفر القاعدة الكافية من

القدرات الاقتصادية والموارديـة والبشرية لتمويل بناء قاعدة اقتصادية معتمدة على الذات ولعل أهم شرط في تحقيق ذلك هو وحدة اللغة المستخدمة في التواصل والعمل وربط الجماهير بثقافة ثورية واحدة ومزاج واحد.

.وعلى النقيض مما حدث في أوروبا فان الأمر هنا معكوسا بشكل ما .. فعلى سبيل تحررنا سيصبح من الأجدى الحفاظ على لغة جامعة بديلا عن تفتيتها عبر تسيد عدد من اللغات المحلية ... لأن القضية هنا نقيضة لما كان عليه الحال في أوروبا وقت نهوضها فليس من شروط نهوضنا الانفصال عن سيطرة كنيسة مركزية تحتكر المعرفة عبر احتكار لغتها « اللاتينية « ولا الاتجاه إلى إنشاء «دول قطرية « و»ثقافات «قزمية « و»لغات جيتوية» بل من شروط نهوضنا هو خلق ثقافة مشتركة ولغة جامعة لتربط وتكتل لا لتفتت ما قد أشبعه الاستعمار تفتيتا ...

السؤال الآخر، هل اللغة العربية بنحوها وصرفها وطريقة كتابتها تحتوى على المعايير الكافية لتكون أداة ثورية كفأه في مناهضة الاستعمار والتحرر منه وإنجاز مشروع حداثتنا التقدمي ؟؟؟ للأسف الإجابة هي « لا «

فاللغة العربية تحتاج طريقة جديدة للكتابة تكفينا عوار الخط النبطي من صعوبة تضمين النطق الصحيح في صلب الكلمة فهو نمط كتابة فقيرة في حروف الحركة والتي يجب أن تُحل باختراع حروف جديدة للكتابة تشمل الحروف القديمة وما يوازي القيم الصوتية لحركات الضم والكسر والفتح والتنوين والشد إلخ.. فبدل أن تحيط بالكلمة كالزخارف تصبح جزء لا يتجزأ من حروف الكلمة الأصلية .كذلك نحوها وصرفها وطبيعة مفرداتها تحتاج إلى كثير من التبسيط لكي تكون لغة جماهيرية شعبية بمعنى أنه في أوروبا كانت نهضتها مرتبطة بتحويل اللغات الشعبية وتطويرها إلي مرتبة لغة العلم والفلسفة والدين والأدب لكن في حالتنا نحتاج إلي تحويل اللغة العربية إلى لغة شعبية من خلال الاستقاء المستمر من لغة الشعب بعد تصفيتها وتنقيحها لابد من تحويل اللغة العربية إلى أداة سهلة التعلم سهلة الاستخدام لتكون أداة تواصل في محاور التكتل التي أشارنا إليها سابقا .

و بشكل عام اللغة العربية ليست لغة مطلقة الكمال فهي ليست مقدسة ولا إلهية ولكنها لغة كبقية اللغات تتطور بتطور من يستخدمونها أو تنحسر وتتكلس بتخلفهم وتراجعهم... لا أمل في تطور اللغة العربية إلا في بذل الجهد على مستوين الأول هو تطوير البنية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع العربي ككل وكانت لنا في ذلك ثلاث محاولات أخرها هي التجربة الناصرية لكنها انتهت بأن تم احتواءها وتكلس المجتمع وارتد مرة أخرى والثاني هو إحداث ثورة ثقافية على اللغة الموروثة وانفتاحها على مشكلات العصر وأزمة الإنسان العربي المعاصر وده حصل فعلا وقطعنا فيه شوط كبير جدا.

واللغة العربية ليست من طرح بدو الجزيرة الرحل فالعربية أرقى من ذلك وإنما هي المشترك اللغوي العام لأمم الطوق الحضاري القديم ومصب صياغاتهم اللغوية المتقاربة والعديدة التي تمازجت واندمجت عبر القرون لتنتج هذه الصيغة النهائية التي انصهرت تماما عبر جدالات لاهوتية وفلسفية عميقة لم تشهد أي منطقة جغرافية اخرى لها مثيل وليس أقل من أن أقول أني كمصري لا أشعر أبدا بالغربة مع العربية ولا أشعر أبدا بذلك الشعور المقيت الذي يحاول أدعياء الفرعونية تصديره لنا من أننا قد فقدنا هويتنا وعلى العكس أشعر بكامل الرضى أن لغة أجدادي القدامى تُشارك في هذا الإنجاز الحضاري الإنساني الغيرمسبوق بنسبة ٣٠٪ من مجمل جذور ألفاظه ..إن العربية تقدم المادة الخام المناسبة للغة المقاومة العالمية لمنظومة النهب العالمية أو لنقل لو كنا أكثر موضوعية لغة المقاومة للقارة السمراء .. إن تلك المنطقة التي تحتل قلب العالم القديم تتعرض لأبشع الهجمات الممنهجة لتدميرها وإخراجها من التاريخ ليس فقط طمعا في ثرواتها ولكن لأن ما يكمن فيها من خطورة على بقاء منظومة النهب يجعل كل ترسانة تلك الأخيرة توجه ناحيتها فالاتحاد العربي بصيغته الاشتراكية في حال صعوده سيجذب في فلكه محررا أفريقيا كلها وكل القوميات الفرعية من كردية وإيرانية وتركية بامتداداتها المسلمة في وسط آسيا ولذلك فإنهم يدركون ما في العربية نفسها كلغة من إمكانات

مهولة للمقاومة والتحدي لصلف منظمة النهب « كأداة تجميع لا تشتيت « لذلك فان ما يحدث من إحياء للغات ميته وإبراز للهجات فرعية هو على الحقيقة ما ينزع منا هويتنا الحقيقية ودورنا التقدمي للمشاركة في إنقاذ العالم من الغول اللاعقلاني لمنظومة النهب مع باقي الشعوب المقاومة.

لذلك من يدعو لبعث موات الثقافات الحجرية ليعمق هوة التشظي بين شعوب الإقليم العربي نقاومه بتبني ثقافة عربية موحدة بروافدها المتعددة .. فما يميز الثقافة العربية خاصة في عصرها الوسيط أنها ذات طبيعة عالمية إنسانية فالعناصر التي كونت الثقافة العربية انتمت إلى أعراق شتى العربي والفارسي والتركي والرومي والسوداني وحتى الأوروبي كما أن تلك الثقافة العربية قد مثلت وقتها بحيرة واسعة تستقبل مصبات روافد الثقافات الهندية والصينية والرومية والسريانية والقبطية والمغربية والأندلسية والإفريقية ما كان يشكل النسبة الساحقة من ثقافات العالم.. فهي ثقافة عالمية في أداتها اللغوية وفي روافدها وفي المشاركين في إنتاجها. لذلك وعلى العكس من الشائع فالتمسك بالفصحى والثقافة العربية هو منحى تقدمي ومقاوم على عكس الداعين للدارجة وإحياء اللغات الميتة والثقافات الحجرية فهم بوعي أو بدون في خدمة منظومة النهب العالمية ..

كما أن عيب العروبة أو القومية العربية ميزتها أنها قومية تتعدي جغرافيتها السياسية حدود امتداد لسانها فمنابع مصادر الماء الرئيسية للوطن العربي تسيطر عليها قوميات فرعية «الأكراد ،الأتراك، الأحباش « وبالتالي هي قومية منفتحة بحكم الضرورة على العالم الخارجي عكس قوميات أخرى مثل الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية او الإيطالية أو حتى الروسية والصينية .. ولذلك فإن الصياغة الجديدة لتلك القومية والتي يجب أن تستوعب كل تلك القوميات الفرعية والتي أخذت وجودها الحضاري الرئيسي وربما الوحيد من مشاركتها في الفاعليات النشطة للحضارة العربية الإسلامية إبان القرون الوسطى كذلك فقومية فرعية كالفرس عندما هاجروا من خارج المنطقة واستقروا على حوافها وبدأوا في حمله تكوين إمبراطوريتهم قد أخذوا كل تنظيماتهم الحضارية ومنها الخط المسماري من إنتاجات الحضارة السورية الكبرى الجذر الرئيسي للحضارة العربية الإسلامية كذلك فإن الدور المحوري للفرس في حضارة القرون الوسطى جاء عندما ابدعوا داخل الأطر العربية بوسائطها الحضارية ...

إن تضمين الوحدة الأفروعربية للقومية العربية والقوميات الفرعية المحيطة بها ومد العروبة الثقافية في ربوع إفريقيا «وهو الدور التاريخي الذي تعطل كثيرا بفعل التدخلات الاستعمارية « هو أعمق المهامات الكفاحية الرئيسية للمستقبل .وإن إنجاز الوحدة العربية «بقوميتها الرئيسية وقومياتها الفرعية وامتداداتها الأفريقية « على المثال الصيني، هو العتبة الرئيسية لتحقيق التحول الفارق تاريخيا من المنظومة الطبقية إلى المنظومة اللاطبقية ...

لذلك من الأجدى اعتبار العروبة هوية مستقبلية أكثر منها أمر قد استقر في الماضي ولذلك فأدلة إثباتها ليست مطروحة في ركام الحقائق التاريخية السالفة ولكن في ثنايا الضرورة التاريخية الملحة لسياق صراعنا حول البقاء ضد منظومة النهب . فأدلة إثباتها ليست موجودة في كتب التاريخ أو الأديان المقارنة أو فقه اللغة ولكن يمكن البحث عنها في ميادين جغرافية الموارد والجغرافيا السياسية وكتب الاقتصاد و التصنيع.

هذا يعني أن العربية يجب معالجتها بمفهوم جديد يتناسب مع المهام الملقاة عليها في مواجهة منظومة النهب العالمية .

دعاة الدولة الواحدة اليوم يتوافقون مع مشروع تهويد فلسطين ...

دولة واحدة لمغتصبي فلسطين

محمود فنون

أساس الأمر كله للمشروع الصهيوني يقوم على فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ومنذ البدايات وحتى اليوم لم تتغير هذه الفكرة لا بالتفكير ولا بالتطبيق. وقد كان أول ترسيم لها من خلال وعد بلفور الذي نص على "إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ..." عام 1917م، والذي صدر عن وزارة الخارجية البريطانية وبعلم واطلاع وتأييد مجموعة من الدول الأوروبية وأمريكا.

وأساس كل هذا هو فكرة الدولة اليهودية كما طرحها هرتزل في كتابه "الدولة اليهودية" في عام 1896م، وظلت الفكرة مستمرة حيث صرح عيزر وايزمن في مارس 1970م التصريح التالي: "مشروع السلام لديّ هو مشروع هرتزل..."، ومشروع هرتزل كما هو موثق في كتابه "الدولة اليهودية" هو إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين كدولة لليهود.

وعلى المستوى الدولي تم ترسيم هذا المشروع بصدور صك الانتداب عن عصبة الامم المتحدة عام 1922م، الذي أوكل لبريطانيا مهمة تهويد فلسطين وإقامة وطن قومي لليهود فيها وبحدودها الانتدابية. وتأتي فكرة دولة واحدة في فلسطين انسجاما سياسيا وفكريا بل وانحيازا صريحا لهذه المنطلقات مهما تعددت أشكال الطرح والتزيين والإضافات. وقد تكاثف طرح مبادرات التسوية بحل الدولة الواحدة للمستوطنين بعد انسداد

كل آفاق مشروع الدولتين لشعبين، كما يقول دعاة التسوية أنفسهم.

فمنظمة التحرير الفلسطينية ومنذ عام 1973م وبعدها في عام 1974م ثم من خلال مؤتمر القمة العربية في المغرب في نفس العام، هذه المنظمة انتقلت من شعار تحرير فلسطين كلها من الاستيطان الاستعماري اليهودي في فلسطين إلى شعار إقامة دولة فلسطينية مستقلة على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين عام 1967م، ثم تعدلت الصيغة إلى شعار "دولتين لشعبين". وهذا التعديل له مغزى خطير يتمثل بالتعامل مع المستوطنين المغتصبين والمجمّعين من أصقاع الأرض على أنهم شعب ولهم خصائص الشعوب، ولهم حق في 78% من أرض فلسطين بحدودها الانتدابية بعد أن كانت المنظمة والحركات الفلسطينية لا تعترف لهم بأنهم شعب، وتقاتل من أجل استرداد الوطن السليب كله من أيدي الغزاة وتطهيره من استيطانهم.

وكان هذا التنازل هكذا طواعية، لتصبح فلسطين السليبة عام 1948م حقا خالصا معترفا به طواعية وتلقائيا حتى دون مفاوضات ودون أي مساومات رسمية مع طرف العدو. فقط قالت المنظمة وعلى لسان أنصار التسوية فيها: "خذوا هذه الأرض المباركة فهي لكم ولأنسالكم من بعدكم" أما نحن فنطالبكم بإعطائنا ما تبقى!! أعطونا ما تبقى إن شئتم ومتى شئتم وكيفما شئتم، وذلك ثمنا لاعتدالنا وحسن نيتنا تجاهكم وتأييدنا لكم ولاحتلالكم أراضي 1948م ولا شيء آخر. ثم أتت فكرة دولة واحدة في فلسطين بتسميات متقاربة تعبر عن ذات المضمون: "دولة واحدة للشعبين" "دولة ديموقراطية علمانية" "دولة ثنائية القومية" وأشكال أخرى من الصيغ في اللفظ والتطبيق. أتت هذه الفكرة وكأنها إبداع من الطارحين لمواجهة الآفاق المسدودة لحل ما يسمى "بالنزاع العربي الإسرائيلي" و"النزاع الفلسطيني الإسرائيلي" كما سيأتي.

- أساس فكرة الدولة الواحدة في فلسطين

ولكن فكرة الدولة الواحدة للمستوطنين في فلسطين هي من صنع أنصار مشروع تهويد فلسطين من الأساس، وقد عبر عنها الإنجليز وقادة اليهود من البداية وفي فترات تاريخية متعددة وحتى يومنا هذا. فالأمر إذن ليس جديدا بل متواترا، وإن كشفه اليوم على ألسنة متصهينة من العرب والفلسطينيين هو تغذية وتأييد وقبول به ليس أكثر. هم إذن دعاة تهويد فلسطين لصالح المستعمرين الأجانب الذين استوطنوها ضمن رؤيا وبرنامج أخذ طريقه ما قبل وعد بلفور، وترسم وترسخ بوعد بلفور وصك الانتداب وبقرارات أخرى لاحقة.

"وفي المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زيورخ 1929، قام "جابوتنسكي" بتعريف الأفكار الرئيسية في البرنامج الصهيوني التصحيحي، فأشار إلى أن الوطن القومي عبارة عن دولة قومية، دولة تخضع لسيطرة الأكثرية اليهودية، وتقوم فيها إرادة الشعب اليهودي بتقرير أشكال الحياة الجماعية وأساليبها، وأن فلسطين عبارة عن مساحة من الأرض ميزتها الجغرافية الأساسية هي أن نهر الأردن لا يجري على حدودها بل وسطها".

"وفي المؤتمر الصهيوني الذي عقد في بلتيمور في 11 مايو 1942م بالولايات المتحدة الأمريكية، اتخذت عدة قرارات عرفت في حينها باسم (مخطط بلتيمور)، وقد احتوت هذه الخطة على الهيكل الأساسي للخطة الصهيونية الجديدة باتجاه تسوية القضية الفلسطينية والتي جاءت على النحو التالي:

- الاعتراف بأن الغرض من النصوص الموجودة في تصريح بلفور ووثيقة الانتداب التي تتطرق إلى العلاقة التاريخية بين الشعب اليهودي وفلسطين، هو خلق دولة يهودية في فلسطين كما جاء في صيغة وعد بلفور وليس دولة يهودية جزء من فلسطين كما جاء في صيغة بيل".

أي لا يوجد تقسيم ولا غيره بل إن مسعاهم هو فلسطين كاملة والتمدد خارجها أيضا.

كما "وعقدوا مؤتمراً في القدس قرروا فيه رفضهم للمشروع البريطاني لتقسيم فلسطين والذي جاء في تقرير لجنة بيل الملكية، وأعلنوا عن المشاريع والأفكار الصهيونية تجاه تسوية القضية رغبتهم الاجتماعية في تحويل فلسطين كلها إلى دولة يهودية".

قبل بيلتمور، رفضت الصهيونية الرسمية بثبات صياغة الهدف النهائي للحركة، مفضّلة بدلًا من ذلك التركيز على المهمة العملية المتمثلة في بناء الوطن القومي لليهود. أصبح برنامج بيلتمور **هو الموقف الصهيوني الرسمي**

حول الهدف النهائي للحركة، وفقًا لبن غوريون. وكان الكثير من زعماء الصهاينة يرون ضرورة إقامة الدولة اليهودية على كامل تراب فلسطين وليس كما حصل عام 1948م.

"في انتخابات سنة 1949م بإسرائيل، رفض حزب حيروت الصهيوني، رسمياً ما جاء في اتفاقيات رودس بين إسرائيل والدول العربية، وما وضع من حدود لدولة إسرائيل في هذه الاتفاقيات، ذاكراً، إن الوطن القومي اليهودي الذي يشمل ضفتي الأردن يشكل وحدة تاريخية وجغرافية كاملة وتقسيم الوطن هو عمل غير مشروع، وإن أية موافقة على التقسيم لا تعتبر مشروعة أو ملزمة للشعب اليهودي، ومن واجب هذا الجيل أن يعيد الأجزاء المقتطعة من الوطن إلى السيادة اليهودية".

وأصدرت الحكومة الإسرائيلية في تلك المرحلة، أوامرها إلى رئيس أركان حربها "موشي ديان" في سنة 1955، بأن يضع تخطيطاً للاستيلاء على المواقع في شرم الشيخ ورأس نصراني وجزيرتي تيران وصنافير. (44 كما أعلن بن جوريون أمام الكنيست في منتصف نوفمبر سنة 1955 يجب على مصر مغادرة قطاع غزة في الحال وعلى الأردن إخلاء فلسطين الغربية بكاملها).

- **مواقف القيادات الاسرائيلية الحاكمة بعد عام 1967م**

بعد الحرب كثر اللغط الغربي عن ضرورة إيجاد تسوية لما أسموه "النزاع العربي الإسرائيلي"، وهذا اللغط يتحدث عن عدم جواز احتلال الأراضي بالقوة كما جاء في قرار 242 وما قد يفتح الباب على إمكانية انسحاب اسرائيل من الأراضي التي احتلتها أو بعضها (وكل هذا لم يحصل منه شيء حتى الآن).

- **فلسطين كلها لليهود**

وقال ديان في 11 يونيو 1967: "إن قواتي يجب أن تبقى في سيناء وإن القدس يجب أن تظل عاصمة لإسرائيل وتحت سيطرتها، وإن إسرائيل يجب ألا تتنازل عن قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن".

"وذكر أشكول في 12 يونيو 1967م: "أن إسرائيل إذا احتلت أراضي استراتيجية جديدة فلن تعود إلى الحدود السابقة، وأعلن أن اتفاقيات الهدنة السابقة لعام 1949 تعتبر لاغية وأن الحدود التي أوجدتها لم تعد قائمة، وأن إسرائيل لن تعود إلى حدود ما قبل يونيو 1967م، بما أنها ستحتفظ بقطاع غزة ومدينة القدس".

وأعلن بن غوريون مرة أخرى في 18 يونيو 1967م، بأن إسرائيل ستتمسك بالقدس مهما كانت القرارات التي ستتوصل لها الأمم المتحدة، لأن القدس ظلت عاصمة إسرائيل طيلة ثلاثة آلاف عام وستظل كذلك. ثم عاد وأعلن في 23 يونيو 1967م، عن ضرورة احتفاظ إسرائيل بالقدس وقطاع غزة ومرتفعات الجولان. (56)

ثم عاد موشي ديان في 6 يوليو 1967م، وأكد أن قطاع غزة يؤول لإسرائيل وأنها ستتخذ الإجراءات اللازمة لجعله جزءاً منها، كما دعا لاستخدام نفس الأسلوب مع الضفة الغربية لنهر الأردن.

وفي 10 يوليو 1967م، أعلن "إيجال آلون" وزير العمل حينذاك، بأن جميع الخرائط التي أصدرتها المساحة الإسرائيلية وعليها علامات خطوط الهدنة لعام 1949، أصبحت قديمة ومضى زمانها وتاريخها".

وفي تصريح لموشيه ديان في 10 أغسطس 1967م، قال فيه: "إن إسرائيل ترفض العودة إلى حدود عام 1949 القديمة، وأن على إسرائيل ألا تسمح لدول أخرى تعمل لمصلحتها الخاصة أن تجبرها على العودة إلى الأوضاع القديمة، وأضاف أنه علينا النظر إلى الواقع عام 1967، وإلى خريطة سنة 1967، نحن لا نحتاج إلى حدود دائمة فقط بل إلى حدود تضمن السلام فالسلام لا يعتمد على الأمنيات العربية وحدها بل على نوع الحدود التي تكون لإسرائيل، نحن في القدس وفي الضفة الغربية لأن أمننا وسلامتنا يتطلبان ذلك".

وفي خطاب لإيجال آلون، وزير العمل يوم 15 أغسطس 1967م، أمام اتحاد الكيبوتزات الموحد، دعا فيه إلى توطين اليهود في الضفة الغربية للأردن، وفي مرتفعات الجولان".

- **مشروع ايغال الون المطروح في تموز 1967 بعد الحرب مباشرة**

"وحدد المشروع منطقة غور الأردن من نهر الأردن وحتى

المنحدرات الشرقية لجبال نابلس وجنين لتبقى تحت السيادة الإسرائيلية، وهكذا أيضاً بالنسبة لمنطقة القدس وضواحيها ومنطقة الخليل. أما بقية أراضي الضفة الغربية فتعاد إلى السلطة الأردنية مع فصل تام بينها، وإقامة معبر بين هذه الأراضي وبين الأردن بواسطة لسان في ضواحي مدينة أريحا. أما الأجزاء الأخرى من مشروع ألون فتطرقت إلى ضم قطاع غزة بأكمله إلى إسرائيل وتوطين اللاجئين خارج القطاع".

"وصرح ديان أمام طلبة الجامعة العبرية بالقدس في 6 فبراير 1968، بالآتي "في سنة 1948 حصلنا على الدولة من الناحية السياسية، وإنني أجرؤ على القول أن الأساس آنذاك كان تحقيق الاستقلال السياسي وكان هذا هو الروح، أما الجسم الذي ألبس في هذه الروح من الحدود والمناطق فكان يجب أن يكفي من الناحية الكمية الاحتفاظ بالروح ولكن الجوهر الأساسي كان في الاستقلال السياسي للشعب اليهودي، والآن وبعد حرب الأيام الستة وبسببها وصلنا في عملية العودة إلى صهيون إلى مرحلة وضع خريطة أرض إسرائيل".

أي المهم استقلال الشعب اليهودي في دولة يهودية الطابع، مع بقاء جزء من الشعب الفلسطيني كما حصل فعلا.

- **اعتبار نهر الأردن حدود الأردن الشرقية لدولة إسرائيل**

قد صرح عيزر وايزمن في 11 يناير 1970م، لصحيفة اللومند الفرنسية، "إنه من الضروري الاندماج السياسي والاقتصادي الكامل لكل الأراضي التي جرى احتلالها بواسطة إسرائيل في أعقاب حرب الأيام الستة".

كما نقلت وكالة الأنباء الفرنسية حديثاً لعيزر وايزمن في 19 فبراير 1970م، قال فيه: "علينا أن نكف عن الحديث عن السلام ونركز جهودنا لتقوية مراكزنا، فإن وطننا موطن أجدادنا موجود بين أيدينا وينبغي أن تنص أية مباحثات مع العرب على حقوق إسرائيل دون أية تنازلات بشأن الأراضي فإننا نرى أنه لا داعي لإعادة بعض تلك الأراضي إلا إذا أصبنا بلوثة عقلية".

كما نشرت صحيفة دافار الإسرائيلية في 13 مارس 1970م التالي لعيزر وايزمن يقول فيه: "مشروع السلام لدي هو مشروع هرتزل، ولذا فأنا لا أعترف بتعبير الأراضي المحتلة إذ أن هذه الأراضي المشار إليها كانت في الماضي جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل".

وقال مناحيم بيغن في أكثر من مناسبة "أن الضفة الغربية لنا وأن الضفة الشرقية لنا" وقال "إن الفلسطيني هو كائن ذو قائمتين" أي ليس إنسانا ولا يعترف أن الفلسطينيين شعبا له حقوق وواجبات الشعوب.

- **ثم جاء قانون يهودية الدولة الذي أقر عام 2018م**

"قانون الدولة القومية لليهود في إسرائيل قانون أساسي يعرف إسرائيل دولة قومية للشعب اليهودي وصادق عليه الكنيست في 19 حزيران 2018م، وحدد القانون أن اللغة العبرية هي اللغة الرسمية في إسرائيل. كما يشير القانون إلى أن الهجرة التي تؤدي إلى المواطنة المباشرة هي ليهود الشتات حول العالم".

وقس على ذلك من مواقف وممارسات تنسجم مع فكرة أن فلسطين كاملة هي دولة لليهود، وعلى ذلك يجري تهويدها على قدم وساق ودون أي تراجع ولا حتى إبطاء.

فما العلاقة بين مبادرات الدولة الواحدة والقرارات والمواقف الإسرائيلية؟

لماذا غادروا حل الدولتين؟

أوردوا العديد من الأسباب وأهم هذه الأسباب على الإطلاق أن اسرائيل رفضتها باستمرار ومنذ البداية، وارتباطا بذلك قامت اسرائيل بتغيير الوقائع على الارض وهودتها ونشرت الاستيطان في كل أنحاء الضفة الغربية لنهر الاردن وعمقت تهويد القدس وليس من المهم ذكر الأسباب الأخرى.

إذن تتحدّد أهمية المبادرات بقبول إسرائيل لها، وبالتالي بادروا إلى طرح مشروع قد تقبله إسرائيل، فليس لديهم أية وسائل لإجبار إسرائيل على قبول أية مبادرة او مشروع تسوية وهم أساسا يستهدفون رضى اسرائيل وليس إزعاجها، مع الانتباه أن جميع المبادرات التسووية ومشاريع التسوية ظلت حبرا على ورق بالإطلاق.

- **الانسجام التام مع مشروع دولة اليهود**

ومن الملاحظ أن مشاريع وصيغ الدولة الواحدة من قبل طارحيها من الفلسطينيين والعرب تحاول ان تنسجم مع الفكر الصهيوني،

فكرة تهويد فلسطين المذكورة أعلاه بأوسع قواسم مشتركة.

الإبقاء على ما تم تهويده في فلسطين بيد اليهود ولا داعي لإزالة المستوطنات منها. هل هذا يحتاج إلى نضال لفرضه على السلطات الحاكمة؟

ويطرحوا على سبيل التزيين والتمرير مطلب: إعادة اللاجئين إلى أرضهم وممتلكاتهم! الله أكبر! كيف سيستعيد الفلسطيني أرضه وممتلكاته بينما تقوم عليها المستوطنات وكافة أشكال المنشآت والمؤسسات والطرق والمطارات والمزارع ويسكن اليهود في البيوت العربية للاجئين الفلسطينيين؟

بعد ذلك يطرحون تعايش "الشعبين" في دولة واحدة للجميع ليعيشوا بسلام ووئام.

وبعضهم وهم الأسوأ يطرحون أن منظمة تحرير فلسطين وبعض رموز الثورة الفلسطينية قد طرحوا شيئا من هذا، وينتزعونه من سياقه بصياغة تلائم وساختهم وعمالتهم.

وفي الحقيقة أن ما ورد في ميثاق المنظمة وهو مصاغ عام 1964م أي قبل عام 1967م واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة واستيطانها، يتحدث عن يهود كانوا موجودين أصلا في فلسطين ولا يتجاوز عددهم الألوف. وفي طرح جورج حبش على سبيل المثال كان الحديث عن التعايش مع من يتبقى في فلسطين من اليهود بعد تحريرها واقتلاع المستوطنين أي ليكون الحديث عن ألوف من اليهود الراغبين بالبقاء وليس الاستيطان الموجود حاليا، وما يتبعه من استيطان ومستوطنين لاحقا. هنا توسيخ متعمد للثورة الفلسطينية واسم جورج حبش.

يؤكد الطارحون ضرورة المبادرة لطرح جديد: "ففي غياب مشروع سياسي لإزالة الاستعمار الاستيطاني العنصري في فلسطين، قد تذهب أية جهود أو تضحيات سُدى في حال تمّ استثمارها ضمن طرح استسلامي، مثل طرح الدولتين الذي يعترف بشرعية الدولة اليهودية، أو طروحات أخرى سقفها تحسين شروط الاستعمار بدل العمل لإزالته".

ولذلك لا بد من طرح مبادرة حاليا كي لا تضيع الفرص (أية فرص) وهذا يبدأ من تشخيص دقيق للحالة: "يبدأ تلافي مخاطر هدر الجهود والفرص، بتشخيص دقيق لجوهر الصراع، فهو ليس خلافاً طائفياً بين المسلمين أو العرب واليهود، ولا نزاعاً عقارياً يقتصر على سرقة بيوت وأراض، ولا عراكاً على بعض الكيلومترات المربّعة يمكن فضّه من خلال التفاوض، ولا مسألة مشاعر تتلاشى مع مرور الزمن، ولا حتى مجرّد قضية إنسانية لا تستدعي سوى التعاطف مع من ظُلموا..."

إذن هنا يستثنون كل أساس الصراع والتناقض، الصراع على الأرض مشخصة في بعض كيلو مترات مربعة وعقارات وبيوت حتى دون التأكيد أنها ملكية ووطن الشعب الفلسطيني، وذلك من أجل توصيف الصراع والتناقض بشكل يمهد لطرحهم ومبادراتهم.

فيستخرجون الجوكر الحاسم: "لذا، لا يمكن مواجهة المشروع الصهيوني إلا على أساس مشروع يصيبه في أساس زعمه، أي مشروع لا يرى الدول أدوات حرب خاصة بطوائف في وجه طوائف أخرى، بل أدوات لإدارة المجتمع على أساس مصالح مواطنيه الحقيقية، لا على أساس متخيّلات اجتماعية عدوانية..." كما ورد في وثيقة أحد المشاريع. متخيلات عدوانية وربما ارهابية ومجرمة ولكن عند من؟ وهي بالتأكيد تستهدف العقلية الفلسطينية الثورية بل هم أساسا يوجهون دعايتهم للشعب الفلسطيني.

الحل الذي يقضي على الصهيونية في أساس زعمها: "برفضه المنطق الصهيوني الطائفي-الاستعماري القائم على تسييس الهوية، وتصنيف الناس على أساس خلفياتهم العرقية أو الدينية، لا واقعهم المادّي-المجتمعي، يصيب طرح «قيام دولة ديموقراطية واحدة على كامل تراب فلسطين» المشروع الصهيوني في أساس زعمه، ويشكّل النقيض الجوهري له".

هكذا إذن: إطرح مشروعك الذي هو مشروعهم وقل هذا هو مشروعنا فينتهي مشروعهم والله أعلم! وتكون النتيجة هي إقرار مشروعهم. إقرار مشروعهم مع تعديلات لفظية وشكلية بحيث لا تمس أهداف مشروع الدولة اليهودية والتي لم تعد مشروعا بمقدار ما هي قائمة على أرض الواقع.

إن التشخيص "الدقيق" الذي لجئوا إليه لتوصيف حالة الصراع القائمة، قام حصرا على صهيونية وعنصرية الغزاة.

ولكن الغزاة الذين احتلوا

فلسطين وشردوا أهلها أقاموا عليها مستوطنات استعمارية واستولوا على البيوت الموجودة وسكنوا فيها على أنقاض الشعب الذي كان يسكن ويعمر الأرض والبيوت. كل هذا أزالوه من اللوحة وكأنه لم يكن وأبقوا جوهر الصراع متمثلا فقط في نوع العلاقات القائمة بين الغزاة الأجانب والشعب الفلسطيني مما يوجب تغييرها وكفى الله المؤمنين شر القتال.

- **ماذا لو كان الغزاة من الأساس غير عنصريين وغير صهاينة؟**

إن الشعوب تناضل من أجل تحرير أوطانها من الغزاة مهما كانت جنسياتهم وأعراقهم ومعتقداتهم وممارساتهم، وكيف بالأحرى عندما يكونوا غزاة استعماريين واقتلاعيين معا وكذلك صهاينة وعنصريين ودمويين.

تغييرها!

من يغيرها؟

إن قبول بقاء الاستيطان يعني تفهم وقبول استمرار انتزاع الأراضي من الفلسطينيين لصالح توسع وتمدد المستوطنات وبناء مستوطنات جديدة بحكم الأمر الواقع. طارحوا المبادرات من الفلسطينيين والعرب ومعهم عدد من العرابين اليهود يمتشقون مبادرتهم ويسيحوا بها في أوساط الشعب الفلسطيني مشفوعة بإطار من التزيين الفارغ: عودة لاجئي الشعب الفلسطيني إلى وطنه ومدنه وقراه وممتلكاته.

هكذا ضربة في الهواء ليس لها أي أساس عملي عندهم وعند أنصارهم. وتقوم هذه المبادرة على نقض السرديات التي تمثل واقع القضية الفلسطينية كله وصياغة سردية جديدة: "أن «الخطوة الأولى لأي مسعى ثوري هي بلورة وتقديم سردية سليمة ومتينة، تدحض بروباغندا الأعداء وتقنع المترددين وتمكّن المناضلين والحلفاء... من هنا الحاجة لفرض، أو بالأحرى إعادة فرض، سردية تصيب المشروع الصهيوني في أساس زعمه الطائفي، أي سردية ترفض وجود دولة خاصة بطائفة من الأساس..."، وبالتالي رفض سردية الفلسطيني لصالح السردية الجديدة التي تخدم هدفهم فالتخلص من السردية الفلسطينية مع تزيين سردية الاستيطان يمهد لهم الطريق.

- **أية طائفة هي المرفوضة؟**

هل اليهود طائفة؟ اليهود ليسوا طائفة يهودية أمام طائفة إسلامية وطائفة مسيحية في فلسطين، اليهود جيش من المستوطنين الاستعماريين وهم طوائف متعددة ومنهم غير الطائفيين والعلمانيين. إن حصر الأمر هكذا يستهدف تضليل الوعي من جهة، ومن جهة أخرى لا يرى الفلسطينيين شعبا بل طوائف ومن ثم قبول دولة اليهود باسم آخر ولا شيء آخر.

إن تغيير السردية المطلوب في هذه المشاريع يشمل تغيير السردية الفلسطينية، بل والتخلي عنها لصالح سردية التعايش مع الاستيطان والاعتراف به كحق لهم دون أي مسوغ.

أما الحديث عن العودة فهو دخان تضليلي لن يحصل بغير الكفاح المرير وتدمير الوجود المادي الاستعماري الاستيطاني على أرض فلسطين، فالصراع ليس كما شخصوه بل هو صراع وجود على أرض فلسطين يستهدف اقتلاعهم لإعادة الحق إلى نصابه لتعود فلسطين عربية حرة من كل استيطان ومن كل نفوذ أجنبي، بوصفها جزء من الوطن العربي الكبير الموحد.

- **الدولة الواحدة والحكام العرب**

مصر: اتفاقية كامب ديفيد وما تلاها بين مصر واسرائيل رسّمت الحدود بين مصر واسرائيل بالحدود الدولية لمصر مع الحدود الانتدابية لفلسطين، أي أن قطاع غزة الذي خسرت مصر إدارته واحتلته إسرائيل عام 1967م هو ضمن حدود فلسطين الانتدابية وهو خارج حدود مصر. والمعاهدات والاتفاقات بين الدول تصبح ملزمة لها ويتم تعميمها على الدول الاخرى ويتم إيداعها في ملفات الامم المتحدة.

إن هذا يعني أن مصر تعترف بحدود "دولة إسرائيل" المجاورة لحدودها على أنها حدود دولة اليهود، وليس لديها أدنى اعتراض على ذلك، وكذلك تعترف بولاية إسرائيل على قطاع غزة خصوصا وعلى كل فلسطين عموما.

الأردن: اتفاقية وادي عربة رسمت الحدود على أن نهر الأردن وخط يمتد من البحر الميت ومن خلال وادي عربة حتى خليج العقبة، هي حدود رسمية بين "دولة إسرائيل" والأردن، وبالتالي

تعترف الأردن بولاية إسرائيل على كل فلسطين بما فيها الضفة الغربية التي تتحمل الأردن وزر سقوطها بيد الاحتلال عام 1967م، وتتخلّى عنها وتكون ضمن جغرافية الدولة اليهودية.

- **الدول العربية التي اعترفت بإسرائيل والتي بصدد الاعتراف بها:**

هي تعترف بإسرائيل بما يشمل الحدود التي اعترفت بها كل من مصر والأردن، وبالتالي تعترف بولاية إسرائيل على فلسطين بحدودها الانتدابية كدولة لليهود. وكان الحكام العرب الرجعيين منذ ما قبل عام 1948 يخونون القضية الفلسطينية لصالح إقامة دولة لليهود، واليوم معهم جيش من الفلسطينيين العاملين من أجل الاعتراف بدولة لليهود على أرض فلسطين، يخونون فلسطين وشعب فلسطين والامة العربية وقضاياها.

إن تعزيز إسرائيل من قبلهم هو تعزيز لدور إسرائيل ضد الوطن العربي والعروبة والأمة العربية، فيكون هؤلاء خدما مأجورين للإمبريالية ومن ضمن جيشها المعادي، وهم كلهم يعرفون ذلك ويقومون به مأجورون بالدولار والاجبار والسقوط والخيانة.

- **الزمن وتسلل الخيانة إلى جسد الشعب الفلسطيني**

اختراق الفصائل:

- حركة فتح: لقد تمت إعادة صياغة شاملة لحركة فتح حيث تحولت من منظمة فدائية شبه عسكرية تقاتل من أجل تحرير فلسطين السليبة عام 1948م وكل فلسطين بعد عام 1967م، تحولت إلى حركة سياسية تسعى للتسوية مع إسرائيل. والمهم أنه عبر الزمن تم اختراق مواقف حركة فتح بحيث تحولت إلى القبول باتفاقات أوسلو، وتحولت إلى جهاز وظيفي وأمني يلتزم بالتنسيق الأمني ويمارس دوره بما يرضي إسرائيل.

ومن المهم القول أنه تم اختراق تنظيم فتح من فوق إلى تحت عبر الزمن، وأخذت القيادة تطرح مواقف تعبر عن قبولها باحتلال اليهود لفلسطين تحت عنوان السلام واقامة دولة فلسطينية على أراضي الضفة والقطاع، سرعان ما اختصر الأمر إلى ما أسموه مشروع فتح وهو القائم حاليا. إن تدمير فتح المقاومة كان هدفا مهما وأساسيا للعدو بكل تحالفاته ووجد صدى له في داخل القلعة.

- الجبهة الديموقراطية: وهي ظل خفيف لحركة فتح وتنسجم معها في الجوهر، وكانت تؤيد توجهها التسووي وأحيانا تقوم هي بتقديم الطرح. والجبهة الديموقراطية هي اختراق مخترق للجبهة الشعبية حيث كان انشقاقها مدعوما ومن أجل تقليم أظافر الجبهة الشعبية، وظلت الاختراقات فيها مستمرة لتطال عدة مستويات وتظل القيادة تبرر كل منزلقاتها وتدفع كادرها للقبول، وعادت وانشقت لتكون شظيتها الجديدة "وعاء الغرور".

- الجبهة الشعبية: وهي أكثر جهة تتعرض للاختراق السياسي والأمني، وهي ضمت منذ سنوات طويلة عناصر في المستوى القيادي أقرب إلى مواقف ومتغيرات فتح والديموقراطية، واستوعبت في ثمانينيات القرن الماضي في الخارج مجموعة من الكادرات ذهبت كلها إلى مواقف التسوية؛ وبعد أوسلو تواطأت هذه المجموعة ثم أخذ جزء كبير منها يعمل على برامج التسويات وينسجم معها وينظّر لها.

وكانت قيادة عرفات تعمل بقوة لاختراق الجبهة وفشلت في مواقع ونجحت في مواقع أخرى، ولكن الاختراقات الأكبر حصلت بعد أوسلو، وكانت المنظمات المدنية من الإن جي أوز قد استوعبت عددا من كادراها النشط. المهم إن الاختراق وصل للموقف السياسي حيث وقع عدد من كادر الجبهة على وثائق الدولة الواحدة، وبعضهم كتب ونشر دعواته أو أيد دعوات الغير. كما أن كادرات أخرى محمية من قيادة الجبهة تعمل ببرامج التسوية والدولة الواحدة وتنشط في الداخل والخارج.

إن هذا الاختراق عميق وخطير ويستهدف تحويل الجبهة من فصيل يقاوم الاحتلال الى فصيل يساند الاحتلال، وهو يحصل من قبل العدو وفي أقبية التحقيق ومن قبل أجهزة أمن السلطة وقوى أمنية عديدة في الداخل والخارج.

- حماس: يقبل قادة حماس اليوم وبدون أي مبرر سياسي أو منطقي يقبلون بدولة في الضفة والقطاع، وهذا اختراق سياسي كبير. كما أنهم يستصرخون من أجل هدنة طويلة الأجل مع الاحتلال كي يعيش الاحتلال بأمن وسلامة. هذا عدا عن الاختراقات الأمنية التي نجح بها العدو وأمن السلطة وأجهزة أمن أخرى لجسم حماس، بالإضافة

إلى نتائج أقبية التحقيق كما هو حال بقية القوى.

- الجهاد الاسلامي: على الأقل في الضفة الغربية تم اختراق الجهاد بشكل واسع من خلال أجهزة السلطة وكذلك الأمن الإسرائيلي.

- **هل سينجح كل هذا؟**

الشعب الفلسطيني قاوم برامج صهينة فلسطين من البداية، وقاوم الاستيطان وهاجم المستوطنات وحرقها في زمن الدولة العثمانية وزمن الاحتلال البريطاني، وفي العقد الثاني من القرن الماضي شكل منظمة الفدائيين وظل يقاوم ويشن الانتفاضات والثورات والهجمات العسكرية وحتى اليوم، ليعبر عن رفضه تهويد فلسطين ومقاومة كل مظاهر الاحتلال.

في ثلاثينات القرن الماضي تجاوز الشعب الفلسطيني القيادة الرجعية التقليدية التي كانت تتساوق مع الاحتلال البريطاني، وقام بثورة 1936- 1939م وكاد يهزم بريطانيا. واليوم يشن الفدائيين عملياتهم متجاوزين قيادة السلطة وما يسمى اللجنة التنفيذية التي من المفروض أن تكون قيادة الشعب الفلسطيني وقيادة الفصائل.

واليوم الفدائيون الفلسطينيون يقولون: نرفض وجود الاستيطان ودولته ونرفض جيش المتهالكين على التسويات لخدمة الكيان ونرفض الاعتراف بتهويد فلسطين، والشرارة متصاعدة. وإن تحرير فلسطين هو مهمة الشعب الفلسطيني والأمة العربية وبالأكثر مع محور المقاومة، ولا بد ومن البداية إعادة روح الثورة والمقاومة وروح التحرير لجماهير الشعب الفلسطيني وجماهير الوطن العربي.

ولا بد من قيادة تلتزم بتحرير فلسطين وتقود الحركة الفلسطينية لهذا الهدف، وتقيم تحالفاتها وتآلفها على هذا الأساس وتعمل على اكتساب الشارع العربي والقوى المحبة للحرية والمعادية للإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية، وعلى قاعدة فهم لوحة الصراع العالمي ومعرفة معسكر الأعداء والاصدقاء.

عشرون عاماً من الاحتلال

وما يزال!

ملف العراق

سلام موسى جعفر
يكتب:

العراق .. عشرون عاماً من الاحتلال وما يزال!

« إذن دعونا نُطلق النار عليهم واحداً فواحداً»

في الثالث من آب ١٩٩٠، أي بعد يوم واحد من دخول القوات العراقية الكويت، التقى بندر ابن سلطان بوزير الدفاع الأمريكي تشيني في مكتبه بحضور رئيس الأركان كولن باول. عرض باول على بندر الخطة «٢٠٠١ - ٩٠» التي تضمنت تفاصيل عن حجم وأعداد القوة العسكرية التي سوف تُستخدم لضرب العراق. الخطة كانت جاهزة ومركونة في أحد أدراج غرفة العمليات في البنتاغون وحان موعد تنفيذها على الأرض.

عن محمد حسنين هيكل في كتابه «الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق»

في الخامس عشر من شهر أيلول ٢٠٠١ أي بعد أربعة أيام فقط على هجمات الحادي عشر، اجتمع مجلس الحرب الامريكي لوضع استراتيجية لما سُميَّ ب «الحرب ضد الإرهاب»، بحضور رامسفيلد، ولفويتز، تشيني، باول، كوندوليزا رايس، تينيت وعدد اخر. ترأس الاجتماع الرئيس الامريكي جورج دبليو بوش.

جورج بوش: ما العمل أيها السادة؟

رامسفيلد: نهاجم العراق!

جورج بوش: ولماذا العراق؟

رامسفيلد: لأن الخطة جاهزة سيدي!

آراء اقترحت إيران، وحجتهم ان الحرس الثوري يُشكل مصدر خطر.

آخرين اقترحوا سوريا لكونها تُساند حزب الله الذي يُشكل تهديدا لإسرائيل.

تينيت، باول وكوندوليزا رايس يدفعون باتجاه الحرب ضد أفغانستان، ولفويتز كان يدفع بإصرار نحو شن الحرب على العراق، حجته في ذلك إن التنفيذ سيكون أسهل مقارنة بالحرب على أفغانستان، ولأن التكاليف

ستكون اقل، حيث سيدفع العراق تكاليف الحرب من نفطه، بالإضافة إلى تأمين الحصول على نفط رخيص في المستقبل، ولأن أمن اسرائيل سيكون في حال أفضل عند تدمير الجيش العراقي.

جورج بوش: إذن دعونا نطلق النار عليهم واحداً فواحداً

عن بوب وودوارد في كتابه «حرب بوش».

قرار الرئيس جورج بوش الابن «إذن دعونا نُطلق النار عليهم واحداً فواحداً» يختزل مجموع القرارات المُتخذة في ذلك الاجتماع لتنفيذ المخططات الأمريكية المُعدة سلفاً للمنطقة، ومنها مُخطط احتلال العراق الذي كشفه رامسفيلد حين قال «لأن الخطة جاهزة سيدي»

ثالوث العملية السياسية الأمريكية والاحتجاجات الشعبية.

عشرون عاماً وشعب العراق ما يزال ينزف ويعاني من آثار الاحتلال الأمريكي: بنية اقتصادية وخدمية مُدمرة تماماً، اقتصاد ريعي تابع، تراجع الإنتاج الزراعي، تعطيل الإنتاج الصناعي، ميزانية خدمية بدون خدمات، توقف المشاريع، بطالة، فقر، جوع، تصحر، تجفيف دجلة والفرات، إرهاب، فساد، انتشار المخدرات والجريمة المنظمة، تفشي الأمية، تخلف التعليم، تشوه الوعي العام، ظهور الأوبئة، رداءة الخدمات الصحية وانعدام الخدمات الأساسية كالماء الصالح للشرب والكهرباء...

عشرون عاماً والعراق ما يزال يخضع لاحتلال بغيض.

تتجلى مظاهره بالهيمنة شبه المُطلقة المدعومة بسلسلة من القواعد العسكرية ونشاط مُتعدد الأغراض لأجهزة مخابراته ونفوذ إعلامه وتغلغل قواه الناعمة داخل مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية وتولي وكلاءه مسؤولية ادارة الحكم، إذ تمكنوا من ترسخ بنية اقتصاد ريعي تُلبي حاجة المُحتل وتُعيق تحقيق الاستقلال الاقتصادي والسياسي.

وفوق كل ذلك ما تزال الدولة الأمريكية تمتلك أداة مالية خطيرة تستخدمها للضغط السياسي على الحكومات العراقية للحد من احتمالية تمرد بعضها. فأمريكا تتحكم عملياً بعوائد بيع النفط العراقي، وهو المورد الرئيسي وشبه الوحيد للميزانية. فحسب قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ١٤٨٣ لسنة ٢٠٠٣ والذي استحصلت عليه الدولة الأمريكية بحكم الأمر الواقع، وبتعبير أكثر دقة، الذي فرضته على المجلس فرضاً، تتولى الإدارة الأمريكية مهمة الوصاية المالية على عائدات النفط العراقي باسم الأمم المتحدة. وحسب قرار الوصاية هذا لا يحصل العراق على عوائد بيع النفط من المُشتري مباشرة، بل تُودع هذه العوائد في حساب خاص في البنك الفيدرالي الأمريكي الذي بدوره يقوم

باستقطاع غرامات فُرضت على العراق سابقاً، قبل ارسال كمية من هذه العوائد الى وزارة المالية العراقية. الكمية وسرعة الارسال تعتمدان على أجواء العلاقة بالحكومات العراقية المتعاقبة. وعلى الرغم من انتهاء موجبات اصدار القرار الدولي وبالتالي الغاءه رسمياً، بعد أن سدد العراق كل الغرامات المفروضة عليه، إلا أن كلا الطرفين ما زالا متمسكان بعقد الوصاية.

المتابع الموضوعي للتطورات في عراق ما بعد الاحتلال الأمريكي سيجد دون عناء يُذكر أن هذا الاحتلال قد خلق الظروف التي سهلت على بلدان الجوار الإقليمي مد نفوذها السياسي، وبالتالي أتيحت لها إمكانية التدخل غير المباشر. فليس خافياً على المُتابع تدخلات إيران وتركيا والسعودية وقطر والامارات وحتى الأردن والكويت. بل وصل الأمر إلى حد دخول مليشيات غير عراقية إلى مناطق خارج سيطرة الدولة وفرض وجودها، على سبيل المثال مليشيات حزب العمال الكردستاني PKK.

للنفوذ الإيراني حصة كبيرة، لا سيما في المناطق التي ينتشر فيها نشاط الأحزاب الطائفية الشيعية، وكذلك في مناطق شرق الإقليم. وسواء اتفقنا أم لا فإن النفوذ الإيراني على قوى الإسلام الشيعي الحاكمة قد تجاوز حدود علاقات التضامن الطبيعية وأخذ شكل التدخل السافر في العديد من الوجوه. ولا ننسى واقع أن إيران تُدافع عن نفسها في الساحة العراقية من هجمات ضمن مؤامرة تستهدفها تنطلق من هذه الساحة، وهذا الدفاع هو الذي يقف وراء سفور التدخل الإيراني، الذي بدوره سهل على الإعلام المُعادي تحميله مسؤولية الوضع الكارثي الذي يعاني منه العراقيون.

وعلى الرغم من كل التضحيات والمساعدات التي قدمتها إيران للعراق عند تحرير الأراضي التي احتلتها داعش، إلا أن صورة سلبية عن إيران قد ترسخت في وعي المواطن العراقي. يعود السبب في هذا إلى دعمها الرسمي لقوى وأحزاب ومليشيات غارقة في الفساد والنهب، في الوقت الذي لم تقم فيه هذه الأحزاب بتنفيذ حتى مشروع واحد مُفيد، سواء خدمي أم انتاجي، طيلة وجودها في السلطة، وقد ساعد على ترسيخ هذه الصورة بلا شك الاعلام المتفوق الأمريكي والاوروبي والخليجي.

شيد المحتل الأمريكي النظام السياسي الحالي على أسس طائفية وإثنية قائمة على المُحاصصة بين المُشاركين. وقد صممها بطريقة عطلت إمكانية إصلاحها من داخلها، حتى أصبح مُجرد التفكير بإصلاحها، محض خيال. فلا توجد آلية دستورية تسمح بأي إصلاح أو تعديل، كما أن مصالح القوى السياسية المُشاركة فيها تتحقق فقط بالتوافق وتتضرر من أي إصلاح قد يُلغي المُحاصصة. كما جعل المُحتل هيكل العملية السياسية مُحصنا من إمكانية اسقاطه بتحرك عسكري أو ما شابهه، حيث ألغى مركزية السلطة وجعلها مئات السلطات موزعة على مقرات الأحزاب والقوى السياسية المشاركة في العملية السياسية وميلشياتها وعلى الوحدات العسكرية الموزعة الولاءات، وكذلك على المؤسسات الاجتماعية لما قبل الدولة (مؤسسة العشيرة) التي أُعيد إحياءها.

حرص المُحتل الأمريكي وأصر على بناء هيكل العملية السياسية الطائفية والقومية من ثلاثة أضلاع، قائمة على قاعدة ترفعها ثلاثة أعمدة:

- دستور الاحتلال.
- المرجعية الدينية.
- والتحكم الأمريكي المباشر بالعائدات المالية من تصدير النفط.

الأضلاع الثلاث تُمثل مجموع القوى والأحزاب والمنظمات التي تعاونت معه أو ارتضت بوجوده وتتحرك ضمن ثلاث مناطق جغرافية حسب الانتماءات

الطائفية أو القومية. وهي المناطق المُعدة للانفصال مستقبلا:

١. منطقة إقليم كردستان تحت سيطرة الأحزاب القومية الكردية الموالية للاحتلال الأمريكي.

٢. المنطقة الغربية تحت سيطرة الأحزاب الطائفية السنية وزعماء العشائر. مؤيدة لبقاء الاحتلال الأمريكي.

٣. منطقة الوسط والجنوب تخضع لسيطرة الأحزاب الطائفية الشيعية الموزعة الولاءات ما بين إيران وأمريكا. وفي هذه المنطقة بالذات تتحرك ما يُسمى بالقوى المدنية الموالية إلى الاحتلال الأمريكي، وهي عبارة عن دكاكين سياسية تُطلق على نفسها أحزاب، إلى جانب نشاط ما يُسمى بمنظمات المجتمع المدني المُمولة.

في المقابل لا توجد خارج العملية السياسية مُعارضة حزبية مُنظمة وقوية ذات طابع جماهيري ولها وزن يُحسب له وتغطي جميع أنحاء العراق. فالحزب الشيوعي العراق الذي كانت الجماهير الشعبية تُعول عليه لماضيه النضالي، انتقل عملياً إلى جانب الاحتلال الأمريكي وساهم بفعالية في تشويه الوعي الجمعي للعراقيين. وسهل احتفاظه باسمه القديم، رغم تخليه الكامل عن الفكر، خداع الجماهير في عملية تشويه الوعي المتواصلة. ولم يكن مستغرباً لدى بعض كوادره او متابعيه انخراط قياداته في العملية السياسية وبالتالي تحول الحزب إلى دكان من دكاكين الليبرالية.

هذا لا ينفي، بطبيعة الحال ظهور قوى رافضة للعملية السياسية تتشكل غالبيتها من مجموعات يسارية. غير أن هذه القوى مشتتة وما زالت عاجزة لأسباب موضوعية لا تنفي القصور الذاتي، عن توحيد صفوفها والقيام بمهمة قيادة استياء شعبي يتصاعد. حيث تُقدر نسبة المشاركة في الانتخابات الأخيرة ١٨٪ فقط، وهذا مؤشر على حجم الاستياء الشعبي الكبير بسبب الأوضاع المعيشية المُزرية التي وصلت إليها حياة المواطن العراقي بعد عشرين عام من الاحتلال.

وعند تحليلنا للأوضاع السياسية يجدر بنا الأخذ بنظر الاعتبار واقع أن النُخب الثقافية والإعلامية والأحزاب الداعمة للعملية السياسية الموزعة على الأضلاع الثلاثة نجحت في شطب المهمات الوطنية الموحدة للعراقيين في وعي أعداد كبيرة منهم واستبدلتها بمهمات طائفية واثنية ومناطقية تخص هذه الطائفة أو تلك المجموعة، وبالتالي تقدمت الهويات الفرعية على حساب تراجع الهوية الوطنية المركزية.

ظاهرة الفساد المُتفشية عمودياً وأفقياً، كما لا يخفى على المُتابع الموضوعي، لا يقتصر تفشيها على بغداد وجنوبها، بل هي شائعة في جميع انحاء العراق، في الإقليم والمحافظات الغربية. وهي ظاهرة تمتد جذورها في زمن الحصار الذي تعرض له العراق في التسعينات، لكنها اتسعت وتعمقت بفعل سياسة إفساد متعمدة انتهجتها سلطات الاحتلال الأمريكي لأجل شراء وضمان ولاء أحزاب سياسية

ومنظمات مجتمع مدني ونُخب ثقافية وصحفية وعسكرية وتجارية. وبدورها بدورها، احتاجت الأحزاب السياسية المُكلفة بإدارة النظام السياسي إلى قاعدة اجتماعية تستند إليها، فسعت إلى شراء المناضلين السابقين وذمم نُخب معروضة أساساً للبيع في أسواق البورصات السياسية المحلية والإقليمية والدولية.

ومع أن عمليات الفساد والنهب والاختلاس تُمارسها جميع القوى السياسية، بغض النظر عن الانتماء القومي أو الطائفي في كل المناطق التي تُمثلها الأضلاع الثلاث، ومع أن ظواهر سوء الخدمات وانهيار التعليم وبنية الاقتصاد الريعي وكل مظاهر

الوضع الكارثي، نجدها في جميع انحاء العراق، ويتحمل مسؤوليتها الجميع بلا استثناء، إلا أن الاحتجاجات الشعبية التي بدأت تخرج منذ العام ٢٠١١ كادت تقتصر على مناطق الوسط والجنوب. يعود السبب إلى طبيعة المرحلة السياسية بعد توقيع اتفاقية الإطار الاستراتيجي والظروف التي أوجدتها.

من المعروف إن سلطات الاحتلال الأمريكي المدنية والعسكرية، في بداية تشكيل النظام السياسي، سمحت لنفوذ إيراني أرادته محدوداً. وقتها كان الجيش الأمريكي يتعرض في المناطق الغربية الى سلسلة عمليات مقاومة أنهكته. ولهذا السبب أراد تحييد إيران والقوى السياسية الشيعية العراقية، التي لم تعترض اساساً على الاحتلال، بهدف تجنب حدوث عمليات مقاومة مسلحة في مناطق الوسط والجنوب. فأقدم الاحتلال على ضم قوى سياسية طائفية شيعية موالية إلى إيران في العملية السياسية. من المؤكد أن الاحتلال استطاع كسب ولاء عدد كبير من قياداتها، إلا أنه فشل عملياً في تحجيم النفوذ الإيراني الآخذ بالاتساع في مناطق الوسط والجنوب، وجزئيا في مناطق شرق الإقليم.

صحيح أن الصراعات الحالية بين القوى المشاركة في عملية الاحتلال السياسية، سواء في منطقة الوسط والجنوب أو في منطقة الإقليم وكذلك المنطقة الغربية، هي صراعات بين اللصوص على حصص المسروقات، إلا أنها تجري ضمن محاولات أمريكا المتكررة لاستعادة الهيمنة المُطلقة التي فقدت جزء منها بسبب اتساع النفوذ الإيراني. وضمن هذه المحاولات نفسها يجري استغلال الاستياء الشعبي المُتصاعد وتحويل الاحتجاجات إلى واحدة من أدوات الضغط السياسي ضمن العملية السياسية القائمة. استغلال قوى أمريكا الناعمة للاحتجاجات الشعبية لا ينفي بطبيعة الحال وجود استياء شعبي كبير وبالتالي لا ينفي طبيعة بداياتها العفوية. إلا أن هذه العفوية هي بالذات هي التي تقف وراء وضع عربة الاحتجاجات الشعبية على السكة الأمريكية.

بول بريمر

الفيدرالية في الدستور العراقي منشار تقطيع العراق

في معرض حديثي عن ثالوث العملية السياسية أشرت إلى أن الدستور العراقي هو أحد الأعمدة التي يستند عليها هيكل العملية السياسية التي شيدها الاحتلال الأمريكي للبلاد. أهمية الدستور بالنسبة للعملية السياسية يتأتى من كونه الوثيقة الوحيدة القادرة على تجميع الفرقاء وتشتيتهم في آن واحد. طريقة صياغته جعلت منه الرافعة التي تدعم الهيكل وتمنع سقوطه. انهيار الهيكل سيعني خسارة جميع فرقاء العملية السياسية من القوى والأحزاب والدكاكين المُستفيدة من استمرار وجودها.

في العام ٢٠٠٥ وتحت حماية قوات الاحتلال الأمريكي وبإشراف مباشر من قبل خبراء المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، اجتمع عدد من حاملي الجنسية العراقية والأجنبية وكتبوا ما كان نوح فريدمان وبيتر غالبيرث يُمْليان عليهم، فخرجوا لنا بطبخة مُعدة سلفاً سميت «الدستور العراقي»، وهو نسخة مُنقحة ومُطورة عن قانون إدارة الدولة لسنة ٢٠٠٣ الذي سنته سلطات الاحتلال الأمريكي بإدارة بول بريمر.

نوح فيلدمان أمريكي صهيوني، عمل في العراق كمستشار لبريمر في فترة كتابة الدستور، وهو الذي صاغ قانون الإدارة المدنية

السالف الذكر. أشرف بنفسه على كتابة الدستور الافغاني والعراقي، وكانت له يد في كتابة دستور الاخوان في مصر والمُحرض الأول على إزالة فقرة تجريم التطبيع مع إسرائيل في الدستور التونسي. يُلقب ب «صاحب النظرية السحرية لتقسيم الشعوب»، ومعروف عنه تشجيعه للإسلام السياسي.

بيتر غالبيرث هو سفير أمريكي سابق في إندونيسيا وفي كرواتيا. معروف عنه دوره في تقسيم يوغسلافيا وإندونيسيا. لم يُخف يوماً صهيونيته. عمل رسمياً كمستشار للقيادات الكردية في فترة كتابة الدستور العراقي، وحصل مقابل ذلك على ثروة كبيرة. معروف عنه مواقفه التي تدعو علناً إلى تقسيم العراق. ولعل عنوان كتابه «نهاية العراق» يكشف عن طبيعة المهمة التي اضطلع بها. من أشد المتحمسين لتنفيذ أفكار الرئيس الأمريكي الحالي بايدن، أيام كان الرئيس عضوا في مجلس الشيوخ الأمريكي، وهي الأفكار التي دعا فيها الى تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق تتمتع بحكم ذاتي واسع الصلاحيات وإنشاء حكومة مركزية في بغداد لها سلطات أقل. يعود له الدور الرئيسي في تثبيت الفيدرالية في الدستور العراقي وفي صياغة المواد الدستورية المتعلقة بعلاقة الإقليم مع السلطات الاتحادية وكذلك المواد الدستورية المتعلقة بالثروة النفطية والغازية.

من المفيد الإشارة إلى أن الأحزاب القومية الكردية تخلت عن شعار «الحكم الذاتي الحقيقي» ورفعت شعار «الفيدرالية» في العام ١٩٩٢ بعد أن أصبحت منطقة نفوذها تحت حماية الجيش الأمريكي وحلفاءه، وبعد أن نجح غالبيرث المتواجد في الإقليم منذ العام ١٩٩١ بجر القيادات الكردية إلى تنفيذ مخطط مُعد بعناية لتفتيت المنطقة. اما بالنسبة لقيادات الحزب الشيوعي العراقي فقد تخلت عن شعارها «من أجل حكم ذاتي حقيقي» واستبدلته بالفيدرالية بالتزامن مع بداية تبنيها أفكار الليبرالية الجديدة، وأعلنته رسميا في العام ١٩٩٣

الفيدرالية لدى صانعيها هي شكل من اشكال الحكم يقوم على أساس اتحاد طوعي بين اقليمين أو أكثر في دولة واحدة. بحيث يتمتع كل إقليم باستقلال ذاتي، يتضمن قيام حكومة محلية لإدارة شؤون مواطني الإقليم، وسلطة تشريعية وسلطة قضائية أيضاً. تتفق الأقاليم على التنازل عن حق إدارة الشؤون العسكرية والسياسة الخارجية والتمثيل الدولي إلى سلطات الاتحاد المركزية التي تملك حق نقض قرارات أحد الأقاليم، بينما لا يملك أي إقليم مثل هذا الحق. الترجمة الحرفية للفيدرالية هي الاتحادية.

الاتحادات الفيدرالية قامت أساسا بهدف توحيد شعوب كانت تعيش في أقاليم متجاورة. فهي أداة أوجدتها الرأسمالية الصاعدة بهدف توحيد الأسواق. كما ارتبط مفهوم الفيدرالية بظهور مفاهيم الوطن والوطنية. وقد لعب احتكار الاستعمار من قبل دول وحجبه عن آخرين حافزا للشعوب الأوروبية المتجاورة والمتصارعة في نفس الوقت، أن تُوقف صراعاتها وتُوحد أسواقها في دول جديدة على أمل الحصول على حصة من غنائم الاستعمار. وهنا يحضرني رأي للدكتور علي الوردي مفاده إن العشائر البدوية لا تتوقف عن غزو بعضها البعض إلا من أجل غزوة أكبر.

ففي الفترة التي قررت فيها سلطات الاحتلال الأمريكية انشاء عملية سياسية لإدارة العراق بهدف تنفيذ مهام الاحتلال بأيدي عراقية، تداول المحتلون رأيين بخصوص نوع الفيدرالية المُقرر فرضها على العراق عبر الدستور المُقرر إصداره. الرأي الأول أن يكون للأقاليم صلاحيات أوسع من المركز، والتي تبناها فيما بعد الديمقراطي بايدن يوم كان عضواً في مجلس الشيوخ، وهو رأي دعمه الخبراء الاسرائيليون اللذين استعانت بهم قوات الاحتلال.

والرأي الثاني أن يكون للمركز هامش صلاحيات صورية تبدو وكأنها أوسع من صلاحيات الأقاليم، تبنته سلطات الاحتلال المدنية والعسكرية التي كانت بحاجة ماسة إلى تحييد سكان الوسط والجنوب وتجنب اغضابهم بمشاريع تقسيم صريحة، في الوقت الذي كانت فيه قواتهم تُواجه مقاومة شرسة في المناطق الغربية ألحقت بهم خسائر بشرية أكثر من مجموع خسائرهم طيلة عشرين عاماً من احتلالهم أفغانستان.

إلا أن الطرفين، على ما يظهر، توصلا إلى قاسم مُشترك يُحقق مصالح أمريكا على المدى الاستراتيجي ويُلبي في نفس الوقت مصالح الكيان الصهيوني. حيث سعى المُشرع الأمريكي الى خلق تناقض في تفسير الصلاحيات. وتولى غالبيرث تنفيذ هذه المهمة عن طريق تلغيم الدستور، وخصوصاً في المواد المتعلقة بتشكيل الأقاليم وتعديل الدستور وتحديد الصلاحيات.

وصل استهتار المشرفين على كتابة الدستور إلى حد اهانة واذلال عراقيي الجنسية من المُساهمين في كتابته. حيث وقع الأذلاء من ممثلي الأحزاب والهيئات، بما فيها المرجعيات الدينية، على ١٣٩ مادة دستورية، أُمليت عليهم كتابتها. بينما بلغت أعداد مواد الدستور في الإصدار الرسمي ١٤٤ مادة. أي خمسة مواد جديدة أضافها غالبيرث ومنها اللغم الشهير بالمادة ١٤٠ دون أن يجرأ أحد من الموقعين على الاحتجاج، ولو بالإيحاء.

لن أتناول موضوع الغاء الهوية العربية للعراق في الدستور رغم أهميته، باعتبارها واحدة من أهداف الاحتلال. وسوف أتناول الألغام المتعلقة بتنظيم العلاقة بين الحكومة الاتحادية وبين الإقليم في إطار نظام حكم فيدرالي مفروض.

أسميتها ألغام بسبب مفعولها التدميري حالياً وفي المستقبل.

صنفتها في دراسة سابقة إلى عدة أنواع، أختار منها ثلاث:

النوع الأول هي الألغام التي تُحرض وتشجع على تشكيل أقاليم جديدة. فتجعل من تشكيلها عملية سهلة جداً وبسيطة إلى أبعد الحدود. فعلى سبيل المثال تنص المادة ١١٨: على أن مجلس النواب يمكنه سن قانون « يحدد الإجراءات التنفيذية الخاصة بتكوين الأقاليم بالأغلبية البسيطة للأعضاء الحاضرين!»

أما المادة ١١٩: فتنص «يحق لكل محافظة أو أكثر تكوين اقليم بناء على طلب بالاستفتاء عليه، إما بطلب من ثلث الاعضاء في كل مجلس من مجالس المحافظات التي تروم تكوين الإقليم، أو بطلب من عُشر الناخبين في كل محافظة»!

النوع الثاني هي الألغام التي جعلت من تعديل الدستور عملية مستحيلة. حاجة الأمم إلى تعديل دساتيرها تنطلق من كون الأجيال اللاحقة غير مُلزمة بقوانين وأنظمة دستورية لا تُناسب عصرها. ففي الوقت الذي جعلت كل دساتير العالم من إمكانية التعديل عملية سهلة وممكنة ولا تضع عراقيل وصعوبات عندما تحتاج الامة إلى التعديل، تعمد المُشرع الأمريكي الصهيوني وضع مادتين دستوريتين تجعلان من فكرة تعديل الدستور غير ممكنة على الاطلاق.

المادة ١٢٦: جعلت أية تعديلات مستقبلية مشروطة بموافقة من السلطة التشريعية في الإقليم وبموافقة أغلبية سكان الإقليم. وفي المادة ١٤٢: جعل المُشرع التعديل مشروط بموافقة أغلبية المصوتين في ثلاث محافظات، والمقصودة هي المحافظات الكردية. وهذا يعني في التطبيق العملي استحالة الحصول على موافقة الإقليم الذي لن ولن يُفرط في المكاسب التي حصل عليها عند التوقيع على الدستور.

أما النوع الثالث والخطير هي تلك الألغام التي وضعت علناً من أجل جعل الخلافات حالة دائمة لا نهاية لها. فقد تعمد المُشرع وضع مواد دستوريه

تنفي أحداهم الأخرى. فصياغات المواد تُعطي الصلاحية مرة للمركز ومرة أخرى يسحبها منه! هذه الصياغات هي التي شوهت العلاقة بين المركز والإقليم. وأعتقد أن التناقضات في صياغة المواد هي المسؤولة عن الحالة التي أصبح فيها إقليم الأقلية الكُردية دولة مُستقلة عملياً داخل لا دولة. وفوق ذلك هي التي تُقرر على السلطات الاتحادية، وليس العكس.

ألغام التناقضات وضعت بطريقة واضحة لكنها وقحة، وكأن المُشرع أراد الاستخفاف بعقول العراقيين. فالمادة ١٣: «يُعدُ هذا الدستور القانون الأسمى والأعلى في العراق، ويكون مُلزماً في انحائه كافة وبدون استثناء. ولا يجوز سن قانون يتعارض مع هذا الدستور، ويُعد باطلاً كل نص يرد في دساتير الاقاليم أو اي نص قانوني آخر يتعارض معه»

هذا يعني أن الدستور:

مُلزم في انحائه كافة وبدون استثناء.

لا يجوز سن قانون يتعارض مع هذا الدستور.

يُعد باطلاً كل نص يرد في دساتير الاقاليم أو اي نص قانوني آخر يتعارض معه.

بينما المادة ١١٥: تُناقض تماماً كل ما ورد في المادة السابقة. « الصلاحيات المشتركة بين الحكومة الاتحادية والاقاليم تكون الأولوية فيها لقانون الأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم في حالة الخلاف بينهما»

هذا يعني أن الدستور:

غير مُلزم في جميع أنحاء العراق لأنه مستثنى في الأقاليم.

سمح بسن قوانين تتعارض مع الدستور الاتحادي.

لم تَعد باطلة النصوص التي ترد في دساتير الاقاليم ولا أي نص قانوني آخر يتعارض معه.

دعونا ندخل لنُعاين عن كثب لُغم آخر في هذا الحقل.

المادة ١٢٠: «يقوم الإقليم بوضع دستور له، يحدد هيكل سلطات الإقليم، وصلاحياته، وآليات ممارسة تلك الصلاحيات، على ان لا يتعارض مع هذا الدستور»

بينما المادة ١٢١: «يحق لسلطة الإقليم تعديل تطبيق القانون الاتحادي في الإقليم، في حالة وجود تناقض أو تعارض بين القانون الاتحادي وقانون الإقليم».

أكتفي بهذا القدر من عينات الألغام الفيدرالية في الدستور العراقي التي تكشف نوايا الاحتلال من فرض الفيدرالية كمنشار لتقطيع أوصال العراق إلى ثلاثة مناطق في المرحلة الأولى وتفتيته في مراحل لاحقة.

دعوة إلى تحرير العراق من قيود الفيدرالية

يعتمد الاحتلال الأمريكي، بشكل رئيسي، على زعماء الإقليم في تنفيذ سياسته الرامية إلى زعزعة الاستقرار لضمان استمرار العملية السياسية التي أسسها بهدف تنفيذ مهمات الاحتلال بعد منح العراق استقلاله الصوري. وقد تحول الإقليم عملياً إلى دولة أقلية تتحكم بسياسات العراق وقراراته المصيرية ونجحت إلى حد كبير في عزله عن محيطه العربي. وصار زعماءه يُمارسون دور المُحرض على تفتيت العراق بالتشجيع على انشاء أقاليم جديدة. كما أصبحت المناطق التي يسطر عليها الإقليم منفذ للتغلغل الإسرائيلي، الاقتصادي والثقافي والمخابراتي إلى سائر مناطق العراق. وتحولت أربيل إلى ملاذ للمجرمين والمخربين وعاصمة لإفساد المناضلين السابقين، وجعل من أراضيه منطلق لتهديد دول الجوار.

أما اقتصادياً فقد تحول، بالمعنى الحرفي للمفهوم، إلى زائدة طفيلية غير مُنتجة وتعيش على حساب قوت ومعيشة بقية

المواطنين العراقيين.

لا نختلف على كون الاحتلال الأمريكي للبلاد يمثل القضية الرئيسية للشعب العراقي، ومسألة انهائه تكون لها الأولوية في تفكير القوى الوطنية العراقية على ضعفها وتشتتها. تشخيص الأولي لا يمنع من توجيه ضربات قوية وموجعة إلى الثانوي، تُضعفه، لا سيما إذا كان هذا الثانوي هو الذراع الأيمن الذي يعتمد عليه الاحتلال بشكل كبير.

جميعنا نتذكر، نحن العراقيون، كرد قبل العرب، كيف وقفت غالبية شعبية ونُخب ثقافية وسياسية وطنية عراقية من مناطق الوسط والجنوب والمنطقة الغربية على مدى عشرات السنين إلى جانب نضال الشعب الكردي من أجل نيل حقوقه القومية العادلة التي جسدها شعار الحكم الذاتي. وتحمل الآلاف منا تبعات هذا الموقف، كما حمل العديد منا السلاح دفاعاً عن قضيته العادلة.

تنطق الوقائع الحالية بأن الشعب الكردي في أراضي الإقليم، وقواه السياسية القومية والعشائرية قد أنجزوا عملياً إقامة دولة مستقلة عن العراق. إذا جاز لنا وصفه بالإنجاز، فلم يتحقق هذا الإنجاز، كثمرة لنضال قومي، بل نتيجة تدخل عسكري غربي ودعم إسرائيلي مُعلن. ولهذا فإن هذا الاستقلال العملي مؤجل إعلانه رسمياً بقرار أمريكي. سبب التأجيل يعود إلى قناعة الاحتلال الأمريكي بأن بقاء الإقليم ضمن العراق أكثر فائدة للاحتلال من استقلاله عن العراق. فما يزال الإقليم يمثل الجهة الأساسية، التي تقوم بالدور الوظيفي المناط بها لإضعاف العراق بمنع استقراره عن طريق ادامة أزماته واستنزاف طاقاته وثرواته.

دعونا الان نبحث عن طبيعة العلاقة الحالية بين الإقليم المستقل عملياً وسائر انحاء العراق. ولا اعتقد ان أياً منا سيجد صعوبة في توصيف تلك العلاقة. رسمياً هي علاقة زواج فيدرالي، أما عملياً فقد تجاوزت هذه العلاقة حتى الصيغة الكونفدرالية، بل أخذت شكل علاقة دولة داخل دولة، لكنها دولة أقلية تفرض ارادتها على دولة الأغلبية. هذه العلاقة الشاذة مُقررة من قبل دولة الاحتلال الأمريكي، ولا يمكن انتظار تعديلها. فلا مصلحة لمؤسس وراعي هذه العلاقة القيام بتعديلها، ولا مصلحة كذلك لسلطة الأقلية ونُخبها قبول أي تعديل، ما دامت تدر هذه العلاقة مكاسب شخصية مالية لم يحلموا بها طيلة حياتهم.

ولنكن واقعيين ونعترف بحقيقة نراها جميعاً، لأنها ماثلة أمام أعيننا، أن أغلبية الشعب الكردي، وعلى الرغم من المصاعب الاقتصادية التي يعانيها، واستياءه من فساد الأحزاب والسلطات، إلا أنه لا يعترف ولا يريد أن يعترف بوجود أي قاسم نضالي مُشترك مع بقية الشعب العراقي. فالمهمة الرئيسية في الوعي الجمعي للمواطنين في الإقليم هي تحقيق حلم قومي بإقامة كردستان الكبرى. ولهذا فإن المواطن هناك مُهيئ نفسياً للالتفاف حول نُخبه الفاسدة، حين يتعلق الأمر بالعواطف القومية.

ثلاثة عقود من الانفصال العملي عن العراق، سادت خلاله دعاية سياسية موجهة ضد كل ما هو عراقي وعربي، حيث أُلغيت في هذه الفترة الدراسة باللغة العربية وكذلك ألغيّ تدريس اللغة العربية، كانت كافية لخلق حاجز نفسي وثقافي مع بقية العراق. وقد ولد وترعرع أكثر من جيل لا يعرف اللغة العربية.

منح التدخل الأمريكي في شؤون العراق بعد توريط النظام في مستنقع الكويت، الفرصة للقوميين الكرد ولزعماء العشائر من تحقيق الانفصال الإداري والثقافي والسياسي عن السلطة المركزية في بغداد، باستثناء تمويل الإدارة الانفصالية التي انْتُزِعَت من واردات «برنامج النفط مقابل الغذاء». وكانت نسبتها آنذاك ١٢٪ حسب نسبة سكان المناطق الكردية إلى مجموع سكان العراق وفق خبراء الأمم المتحدة. ومنذ ذلك الوقت تحولت المحافظات

ذات الأغلبية الكردية إلى قاعدة دائمة للقوات الامريكية، ومنفذ مفتوح على مصراعيه للتغلغل الإسرائيلي المخابراتي والثقافي والتجاري. وكذلك تحولت إلى ملجئ للجواسيس والخونة من كل الأصناف والألوان.

ففي هذه الفترة أخذ الشارع الكردي يعكس تفكير نخبه بفك الارتباط نهائياً بنضال الشعب العراقي وبقضاياه للدرجة التي صار فيها المواطن العراقي الكردي يستنكف من المواطنة العراقية، رغم استمرار حمله لوثائقها..

كان من نتائج الاحتلال الأمريكي المباشر للعراق، تعميق حالة الانفصال الإداري والسياسي الثقافي والنفسي للإقليم عن سائر المحافظات العراقية وتعميق شعور سكان الإقليم بالغربة عن بقية سكان العراق. لقد نجح العدو في تأسيس وعي بين الاكراد مُعاد لكل ما هو عربي، ومن الصعب تغييره في الأوضاع السياسية الراهنة. والحقيقة إن انفصال الإقليم أصبح أمراً مفروغاً منه، ويعتمد الإعلان عنه على ضوء أخضر من واشنطن التي لا ترى أن الوقت الحالي مناسب لإعلان هذا الاستقلال، فالدور الوظيفي الذي تقوم به دولة الإقليم ببقائها ضمن العراق أهم من الأدوار الوظيفية التي من الممكن أن تقوم بها وهي مستقلة عن العراق. وينطلق الموقف الأمريكي من ضعف الثقة بإمكانية المشاركين الآخرين في العملية السياسية من أحزاب وجماعات وأفراد في بغداد من العمل الخلاق لتنفيذ سياسة تخدم المصالح الامريكية بشكل مُبدع من وجهة نظر أمريكية، بسبب التخوف من النفوذ الإيراني، لذا رأت الإدارة الامريكية إن الحل الأمثل في الوقت الحالي وضع عملاءها من المشاركين في العملية السياسية تحت التهديد والابتزاز لضمان لجوئهم إلى السفارة الامريكية، طلباً للمساعدة عند أي خلاف مع الإقليم. كما إن الإدارة الامريكية تريد من بقاء دولة الإقليم ضمن العراق استخدام المليشيات الكردية لقمع أي انتفاضة شعبية تهدد العملية السياسية في بغداد كما حدث عندما تم استخدام لواء الحرس الجمهوري في قمع انتفاضة تشرين قبل اختطافها.

صار الإقليم كيان طفيلي يعتاش على ما تُنتجه مناطق العراق الاخرى عبر النهب والابتزاز. ارتفعت الحصة المخصصة للإقليم في الميزانية من ١٢٪ الى ١٧٪ بقرار من العميل الدولي أياد علاوي في الفترة التي عينه فيها الحاكم الأمريكي بريمر بمنصب رئيس الوزراء. وهي حصة أكبر من نسبتهم الى عدد سكان العراق. كما أن إدارة الإقليم، كما لا يخفى على أي متابع، تستولى على عائدات النفط المُنتجة في المناطق الخاضعة لسيطرة الميليشيات الكردية، ولا تُسلمها إلى السلطات المركزية. كما تمتنع أيضاً عن تسليم عائدات الجمارك والضرائب المتحصلة من الأعمال والمشاريع ورسوم المطارات. وبهذا تُقدر حصة الإقليم الفعلية من ميزانية العراق أكثر من ٣٠٪ بينما تبلغ نسبة سكانه ١٢٪ من العدد الكلي لسكان العراق. مع ملاحظة إن الإقليم لا يدفع فوائد القروض التي وقعتها الحكومة المركزية مع البنك الدولي، ولا أقساط السداد. مع أن هذه القروض استُخدمت لسداد ديون متراكمة على سلطات الإقليم لشركات النفط العاملة في المنطقة.

الوفرة المالية لدى سلطات الإقليم مكنتها من شراء ذمم المناضلين وأحزاب وقوى سياسية تعمل في مناطق العراق الأخرى.

الحديث عن تحول كردستان إلى ملجأ آمن للإرهابين الفارين وقاعدة لوجستية للاختراق الإسرائيلي للعراق يطول، لكنه يؤكد على حقيقة دامغة من أن بقاء الإقليم ضمن العراق بصيغة العلاقة الحالية (دولة أقلية تُدير دولة الأغلبية) يشكل خطر أمني واستراتيجي، يصعب السيطرة عليه مع الوقت. فسلوك القيادة

الكردية الابتزازي وخنوع سياسي المنطقة الخضراء لهذه الابتزازات، جعلت مستقبل العراق السياسي والاقتصادي والقانوني تحت رحمة الزعماء الأكراد.

الزواج بين الإقليم وسائر العراق ليس زواج كاثوليكي، يُحرم فسخ عقده. وحدة العراق مُقدسة بلا شك، إلا أن تحول الإقليم الى جسم سرطاني طفيلي ضرره أكثر من نفعه، فتصبح سلامة العراق، والحال هكذا، أكثر قُدسية. التفكير السياسي السليم لا يؤخذ بعين الاعتبار العواطف الرومانسية التي تتغنى بوحدة الوطن مهما كان شكل هذه الوحدة. فمن غير المعقول السماح باستنزاف وافقار واهانة ٨٨٪ من المواطنين العراقيين لإرضاء ١٢٪ لا يعترفون أصلاً بعراقيتهم.

آن الأوان لفك الارتباط مع الإقليم. آن الأوان لتحرير العراق من احتلال الإقليم، كخطوة على طريق تحرير العراق من الاحتلال الأمريكي.

كنت قد طرحت مثل هذه الفكرة قبل بضعة سنوات، وتوقعت رفض الفكرة، لا سيما من قبل الرفاق والأصدقاء الماركسيين وكذلك من الجماعات التي تحشر نفسها بينهم. وحدث ما توقعته.

حق تقرير المصير في الماركسية هو موقف براغماتي في التطبيق العملي، ولكنه يرتدي ثوب مبدئي. بمعنى إن الموقف الماركسي يشترط دائماً تحقيق مصلحة جهة معينة. دعونا نسميها الكادحين، كي أتجنب الدخول في نقاشات فرعية. مصلحة الكادحين تشمل على حد سواء كادحي الأقلية التي ترغب بالانفصال وكادحي الأغلبية. ولهذا فان حق تقرير المصير في الماركسية لا يعني آلياً الانفصال.

قيام دولة كردية مُنفصلة كلياً عن العراق وتابعة إلى أمريكا وإسرائيل لن تخدم على المدى البعيد مصلحة كادحي الأقلية الكردية البالغة نسبتها ١٢٪.

ولكنها ستخدم بكل تأكيد مصلحة كادحي الاغلبية البالغة ٨٨٪. ففي هذه الحالة فان مصلحة الأغلبية هي التي تُعتمد في التفسير الماركسي.

من المؤكد إن الاحتلال الأمريكي للعراق هو القضية الرئيسية، ولكن بقاء علاقة الإقليم في وضعه الحالي ضمن العراق يُطيل من عمر الاحتلال ويقوي قبضته، لأن الإقليم هو أحد أخطر أدوات الاحتلال لإضعاف العراق وادامة مشاكله.

وأنا ادعو إلى فصل الإقليم عن الوطن أعرف جيداً أنه من الممكن أن يتحول الى كماشة إسرائيلية تُطبق على خاصرة العراق وسوريا. إلا أن وجود عدوك خارج بيتك، أقل خطراً من وجوده داخل البيت.

الدعوة الى فك الارتباط مع الإقليم لا يقود بالضرورة إلى الانفصال المباشر، ربما يقود إلى تصحيح العلاقة المشوهة عبر الضغط الاقتصادي المتواصل على سلطات الإقليم وتذكير نُخبه بحجمهم الحقيقي. فك الارتباط سيحرمهم عملياً من موارد لا غنى لهم عنها في ظروف إقليمية ودولية لا تسمح لهم بإمكانية إعلان الاستقلال.

تواشج قطبية الصين ومناطقية سوريا

لخالد خداج

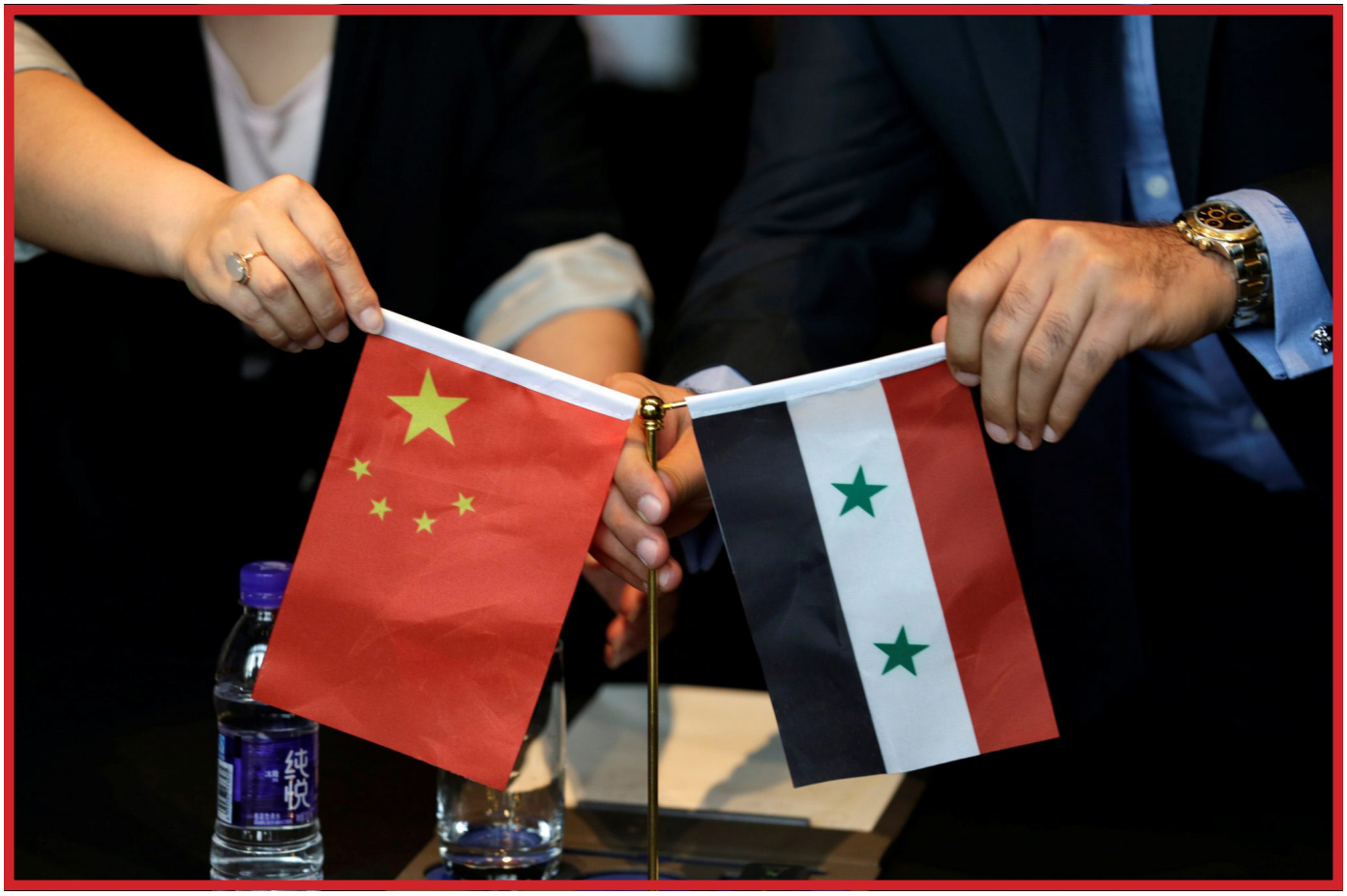

كان من المفترض ان تكون مقالتي، تحليلاً لنتائج الاتفاق الإيراني السعودي برعاية الصين ، غير انه، وعلى اهمية هذا الاتفاق، برز تطور آخر متمثل بنتائج القمة السورية الروسية، كي يصبح الزامياً مقاربة الحدثين بالتوازي لتداخل احداثهما،بالتاثير على الحدث الاقليمي والدولي.

اولاً وبالترتيب الزمني شكل التفاهم السعودي الايراني وبرعاية الصين على وجه الخصوص، حدثاً استراتيجياً اقليمياً مدوياً،فقد شكل تحول دراماتيكياً في المشهد الاقليمي، وتحديداً في الاصطفافات التي تكون موازين القوى حيث ادى هذا التفاهم، بما هو انتقالي المملكة العربية السعودية، من الامركة الكاملة الي تموضع تبدو فيها المملكة قد امسكت العصا من وسطها، في العلاقة مع الصراع.

لا بد ان نتائج هذا التحول تشكل ضربة قاسية للمشروع الامريكي، ولكل متفرعاته،وادواته،حيث تخرج المملكة ومعها الكثير من دول مجلس التعاون الخليجي، من دور تنفيذي مباشر لسياسات الولايات المتحدة، الى، وبالحد الادنى، الحياد، والى فرضية معروفة وهي ان كلفة التفاهم بين مكونات الاقليم هي بالتأكيد اقل بكثير من تلك المواجهات التي ارادها الامريكيون حرباً بالواسطة وعنهم.

على مستوىً آخر فان الستار سيكون قد اسدل على اسوء اشكال استهداف دول المنطقة، وهي الحرب السنية الشيعية التي عنونت امريكياً رغبة باستثارة الانقسامات المذهبية.

لقد جوف هذا الاتفاق ما عرف بصفقة القرن بما هي فعل تطبيع مع العدو، هو تطبيع شكل امريكياً حبل انقاذ للدور الوظيفي الصهيوني، ولاستعادة هذا الكيان المؤقت دوراً اقليمياً هو بديلاً عن دور الشرطي الاقليمي الذي طالما لعبه هذا الكيان، فاصبحت صفقة القرن بما هي ايضاً حمائية امنية لدول الخليج، عاطلة عن العمل.

لا شك ايضاً انه و بهذا التفاهم وفي حال استطاعته الحياة والاستمرار، ستنتفي الحاجة لكل الانتشار العسكري الامريكي بالمنطقة.

وتطول لائحة التداعيات، منها متمثل بدخول الصين كلاعب اقليمي متواجه مع المشاريع الغربية من اجل اقليم متصالح محصن وأمن.

غير ان معظم التوقاعات تركزت علي فكرة استطاعة هذا التفاهم الصمود اما الرفض المتوقع له إن امريكياً او من قبل الكيان الغاصب، وبلغ التشكيك حدود الكلام عن احتمال استخدام الخضات الامنية والاغتيالات لاسقاطه.

غير ان تطور آخر برز كحدث كبير في الاقليم، هو القمة الروسية السورية التي شكلت نتائجها اتفاقات ذات طابع استراتيجي خصوصاً علي المستوى العسكري، حيث حصل ما يشبه التوأمة بين الدولتين.

وبذلك تتحول سوريا من دولة تعاني من الحصار والتجويع، كقصاص لانتصارها على الحرب الامريكية بالارهاب، الى دولة محصنة تستطيع حماية اعادة التموضع الخليجية واستعادة دورها الاستراتيجي.

اذاً حماية اضافية يؤمنها الدور للسوري الجديد الذي يذهب الى تكامل عسكري مع الاتحاد الروسي، للتحولات الجارية،بالاضافة الى جعل التواجد العسكري الامريكي في سوريا مستحيلاً، وضبط الانتهازية التركية وتلاعبها المكرر في دورها الاقليمي وتموضعاتها. .

بهذا الاتفاق الاستراتيجي تصبح سوريا ايضاً، عاملاً معطلاً اضافياً لمغامرات الكيان الغاصب.

المنطقة تبدو فعلاً امام متغيرات كبيرة، اعتقد بقوة انها ستجعل من حياة الكيان مستحيلة ومن الهيمنة والسيطرة الامريكية اوهام صعبة التحقيق.

ايضاً فان الحصار المحكم علي سوريا سيصبح في وضعية التلاشي حيث ان تطبيقاته ستصطدم في الوجود العسكري الروسي الاستراتيجي، و ستكون كلفة تطبيق الحصار مكلفة للغاية.

المنطقة امام ثنائية جديدة، ستغير

وجه الصراع، يبقى ان نشير ان القدرة الغربية على السيطرة على مجريات الاحداث تتراجع، وذلك ربطاً بالازمات الداخلية المتفاقمة عندهم، وهذه قيمة مضافة للمتواجهين مع الهيمنة.

ويتكامل المشهد الشرق اوسطي الايجابي الاتجاه مع الحدث الاوكراني، الذي وان حاول الامريكي اطالة امد الحرب، فهو محكوم بفشل العدوان الاطلسي على روسيا، وهذا مرتكز بشكل اساسي على فكرتين،

الاولى تتمثل باستحالة حصول، هزيمة لروسيا على ارضها وفي حديقتها الخلفية اما الثانية فهو نضوج ظروف اوروبية لرفض الحرب والمباشرة في الحل السياسي القائم على ابعاد التهديد عن الاتحاد الروسي.»

ملاحظات على قضية التنوير ومنهج البحث فى الفقه الإسلامى (٢)

.. مقدمة ..

لدينا واحدة من الاشكاليات الهامة؛ إذا لم يتنبه لها الباحث: فإنه قد يضيق على نفسه دائرة البحث؛ وقد يخرج عن منهجه العلمي - بل والأمانة العلمية. وخلاصة هذه الاشكالية تكمُن في السؤال التالي: هل من الدقة أن نُخضع مذاهب الفقه الإسلامي إلى حكم عام مطلق. وأن نصف تلك المذاهب جميعا بالرجعية؛ وأنه لا مفر من تنحيتها فى مجال البحث واستنباط الأحكام؟. أو أن ننعت هذا المذهب بالتعصب ضد غير المسلمين؛ أو ذاك المذهب بالتطور؟.

بالطبع هناك مجموعة من العوامل والسمات الخاصة؛ التى ميزت كل مذهب من مذاهب الفقه الإسلامى. ومن ذلك: المذهب - أثر البيئة الاجتماعية والسياسية المُحيطة به - الاتجاهات الفقهية والتوجهات السياسية التى عُرفت عن إمام المذهب وكبار أصحابه وتلاميذه - الأصول التي يتبعها فقهاء المذهب في استنباط الأحكام الشرعية...

بعض تلك العوامل - وغيرها - كانت قد تسببت في وقوع الخلاف بين المذاهب الفقهية؛ فى الكثير من المسائل. ومنها تلك الخلافات التى تتعلق بموقف كل مذهب من المجتمع والدولة. ما رأيك - عزيزى القارىء - أن أحدثك عن فكرة « الثنائية »؛ ونقصد بها تحديدا: « ثنائية الدولة والجماعة ». والخلاف حول الأحكام التي تدخل في سلطة الدولة؛ والأحكام التي تُعتبر حقا لجماعة المسلمين.

في هذا الإطار: كان قد وقع الخلاف بين المذاهب؛ بل وبين الفقهاء داخل المذهب الواحد.

.. عزيزى القارىء ..

سأنطلق معك من هذه المقدمة إلى عرض بعض الأفكار

حول تفسير اختلاف الفقهاء

فى مسألة المساواة الحقوقية والعقابية

1- سنتوقف عند أكثر من تطبيق. أما مدخل هذا التطبيق فهو: البحث فى موقف الفقهاء من مفهوم « دار الإسلام ». وهو الموقف الذى يعكس الخلاف الفقهى حول ثنائية الدولة والجماعة - التى أشرنا إليها. وبالتحديد مرةً أخرى: خلافهم حول المسائل التى تدخل فى

سلطة الدولة؛ وتلك التى تُعتَبر حقا للمسلمين وجماعتهم. وأما سبب التوقف عند هذا التطبيق: فهو تأمل جوانب المنطق في مفهوم دار الإسلام عند الفقهاء المسلمين. وثمة فائدة أخرى هي: البحث في العلاقة بين هذا الإطار المكاني - وهو دار الإسلام؛ ومبدأ المساواة والحماية الحقوقية من جهة أخرى.

سنبدأ بالمذهب الحنفي؛ ونلاحظ اختلاف أئمة وكبار فقهاء المذهب - أنفسهم - حول مفهوم دار الإسلام:

i. دار الإسلام عند شيخنا أبي حنيفة - إمام المذهب الحنفي: هي المكان الذى يأمن فيه المسلم على نفسه وماله. ويتحقق ذلك بانعقاد الولاية للحاكم المسلم. ومنطق شيخنا أبي حنيفة في هذه المسألة: أن الأحكام الشرعية تدور مع الخوف والأمان. ويمكننا أن نعبر عن ذلك الرأي بالقول: إن تطبيق الأحكام مرتبط بالأمان الذى يحيا الفرد في نظامه؛ وهو الأمر الذى لا يتحقق - عنده - إلا في دولة يحكمها المسلمون.

ii. أما عند صاحبي أبي حنيفة - وهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن: فإن دار الإسلام هي المكان الذي يكون فيه حكم الإسلام ظاهراً. ويترتب على ذلك: أنه لا عبرة بانعقاد الولاية الفعلية في هذا المكان للحاكم المسلم. وبعبارة أخرى: يكون حكم الإسلام ظاهرا في مجتمع بعينه بالنظر إلى النفوذ الذى تمتلكه جماعة المسلمين في هذا المكان؛ مُقارنةً بنفوذ الجماعات الأخرى. وقد يرتبط نفوذ جماعة المسلمين بعدد أفرادها؛ أو نفوذها الاجتماعي... بالقدر الذى يُمكِّن جماعة المسلمين من الاحتفاظ بعقائدهم؛ والجهر بشعائرهم التعبدية؛ وتطبيق أحكامهم الشرعية فيما بينهم.

2- ويمكننا صياغة الخلاف الذى عرضنا له بطريقة أخرى. وأن نوجزه في السؤال التالي: هل ظهور حكم الإسلام وشرائعه وأحكامه - فى أحد الاقاليم - يرتبط بالضرورة بوجود السلطة أو الولاية الإسلامية. وبمعنى آخر وجود الحكام المسلمين أصحاب الولاية العامة؛ فى ذلك الإقليم؟. أم قد يتحقق ظهور الإسلام - على النحو المذكور - بوجود الجماعة المؤمنة؛ التي تتمكن من تطبيق الأحكام الشرعية؛ فى غياب الحاكم المسلمة. وذلك بما تمتلكه تلك الجماعة من قوة ونفوذ؛ في زمانٍ ومكانٍ مُحددين؟.

في البداية - ومن ناحية المنهج - لدينا ملحوظة هامة. ومن المُفيد أن نضمها إلى الملحوظة التى افتتحنا بها هذا المقال. وأن نتجنب بذلك جميعه مساوئ الأحكام المُطلقة على هذا المذهب أو ذاك. وخلاصة هذه الملحوظة: أنه لا يمكن الإدعاء بأن أحد المذاهب الفقهية كان قد تبنى موقف الدولة في كافة آرائه. وأن مذهب آخر كان قد انحاز إلى جماعة المسلمين في كل أحكامه. وإنما كانت آراء كل مذهب فقهى خليطا بين هذه المواقف. وذلك نتيجةً لمجموعة من العوامل؛ والتي سبق وأن أشرنا إلى بعضها في الفقرة السابقة.

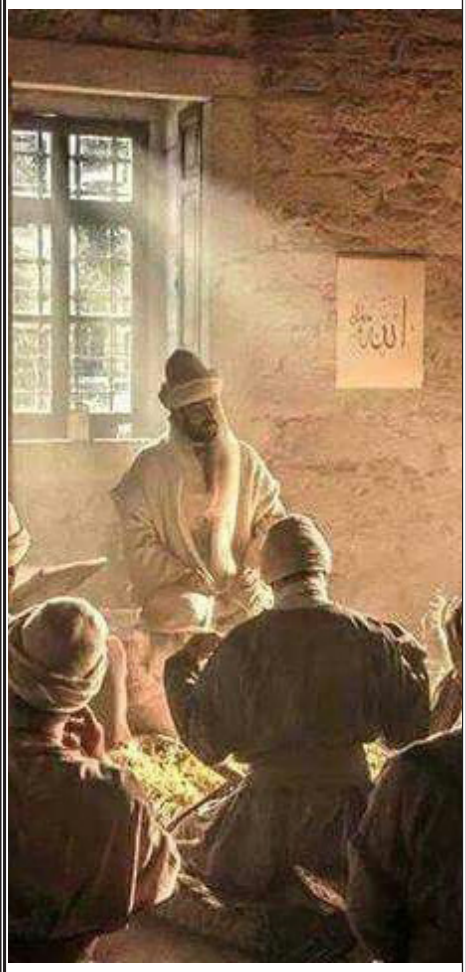

لقد عرضنا فيما مضى بعض آراء شيخنا أبى حنيفة وأصحابه فيما يتعلق بمفهوم دار الإسلام. وسنلاحظ فى موضعنا هذا: أن آراء الشافعي - فيما يتعلق بمفهوم دار الإسلام - كانت أكثر اقترابا من فكرة الجماعة أو جماعة المسلمين. وهو ما سنعرضه على النحو التالى:

i. ذلك أن ولاية الإسلام في مذهب الشافعية: هي " ولاية حُكمية ". ومُقتضاها: وجود علاقة مُعينة بين الفرد؛ وبين جماعة المسلمين. وتنشأ هذه العلاقة إذا كان الفرد مسلما أو كان ذميا. وجه

ارتباط المسلم بجماعة المسلمين - بالطبع - هو الديانة. أما وجه ارتباط الذمي بتلك الجماعة فهو دخوله في ذمة المسلمين. هذا عن المسلم والذمي عند فقهاء الشافعية؛ فماذا عن المُستَأمَن أو الأجنبي؟.

ii. فيما يتعلق بالمُستَأمَن أو الأجنبي: سنلاحظ في هذا الموضع - أيضا - ذات الفكرة التي كان الشافعية أقرب إليها من غيرهم؛ ونقصد بها فكرة الجماعة. وطبقا لمذهب الشافعية: فإن منح الأمان لغير المسلم أو الأجنبي يدخل - أول ما يدخل - في سلطة الجماعة؛ أي جماعة المسلمين. وهو الأمان - أو الإذن - الذى يترتب عليه السماح للأجنبي بدخول دار الإسلام والإقامة فيها؛ والتمتع بحُرمة نفسه وماله خلال إقامته. [57]

3- عزيزي القارئ: تلك كانت خلاصة الآراء الفقهية حول مفهوم دار الإسلام؛ وعلاقة الأحكام الشرعية - كما لاحظنا - بفكرة المكان. وهى الفكرة التي لا يجوز فصلها عن البحث في المواطنة؛ وما تقرره من حقوق وحماية قانونية للأفراد. وتشكل تلك الآراء مَبحثا في الفقه الإسلامي؛ له ما يقابله فى فقه القانون الوضعي. وهو المُبحث الذى يدرس فيه الباحثون: نطاق تطبيق الأحكام الشرعية - أو قواعد القانون - من حيث المكان؛ ومن حيث الزمان والاشخاص.

هل تريد - عزيزي القارئ - التعرف على نتائج هذا الخلاف في بحثنا هذا؟. لدينا مجموعة من التطبيقات؛ تتعلق بفكرة المكان؛ وأثره على الحماية القانونية المُقررة للفرد. أرجو أن تتأملها على ضوء الفلسفة التي تقوم عليها؛ والمنطق الذى تستند إليه. وأرجو أن تلاحظ فيها فكرة المكان أو النطاق المكاني؛ وهل تم التقيد بها؛ أم أن الأمر كان قد خضع للتطور. إليك - عزيزي القارئ - التطبيق التالى:

- ماذا لو ارتكب أحد الرعايا المسلمين أو الذميين جريمته في دار الحرب وليس في دار الإسلام؟. الجواب عند فقهاء الأحناف: أنه لا عقاب عليه، حتى إذا رجع إلى دار الإسلام. وذلك لأن العبرة عند الأحناف هو وقت ارتكاب الجريمة. ولم يكن الفاعل - فى ذلك الوقت - يخضع لسلطة الدولة. وبمعنى آخر: فإن الولاية الإسلامية على الفاعل - وقت ارتكابه للجريمة كانت مُنعدمة.

- أما جواب الشافعية: فإن الفاعل يُعاقب بعد رجوعه إلى دار الإسلام، بشرط أن تكون الجريمة ثابتة عليه. وذلك لأن الفاعل وقت ارتكابه للجريمة كان يخضع لسلطة جماعة المسلمين؛ وهى الجماعة التي كانت تحارب في دار الإسلام. هل لاحظت - عزيزي القارئ - كيف يتجزأ مفهوم " جماعة المسلمين " ؛ تبعا لاختلاف المكان. وهل تأكدت من عدم ارتباطه دائما بوجود ولاية أو سلطة فعلية للحاكم المسلم؟.

4- سنحاول النظر للخلاف الفقهي المذكور من زاوية جديدة. وهى المحاولة التى نقترب بها من فلسفة الحماية المُقررة للأفراد والجماعات في الفقه الإسلامي. يقوم منطق الحماية القانونية - في أفكار أبى حنيفة على فكرة " الولاية الفعلية ". وتفسير ذلك أن أبا حنيفة كان قد اهتم بالرابطة بين السلطة الحاكمة من ناحية؛ والأفراد والجماعات الخاضعين لها من ناحية أخرى. ويترتب على تحقق الولاية الفعلية إمكانية تنفيذ أحكام الشريعة أو القانون. وإذا توافرت هذه الإمكانية: فإنه يمكن البدء في الحديث عن الحماية القانونية للأفراد والجماعات.

السؤال: كيف تتحقق الولاية الفعلية أو الرابطة بين السلطة الحاكمة؛ وبين الأفراد والجماعات؟. لدينا في فقه الإمام أبى حنيفة: ثلاثة شروط: وجود الحاكم المسلم في الإقليم.

الإقامة الدائمة للفرد في هذا الإقليم - التزام الفرد بتنفيذ حقوق الله تعالى.

هناك إشكالية تتعلق بالشرط الأخير؛ وهو التزام الفرد بتنفيذ حقوق الله تعالى. إن ارتكاب الفرد جريمة من جرائم الحدود - كالسرقة والزنى يُعتبر إخلالا منه بهذا الشرط؛ مما يستوجب عقابه. وذلك لأن جرائم الحدود - من حيث المبدأ - تغطى هذا الجانب أو ذاك من حقوق الله تعالى. الإشكالية هنا: كيف

يمكن تطبيق الشرط الثالث - الذى اشترطه شيخنا أبو حنيفة - في الواقع؟. إن اشتراط التزام الفرد بتنفيذ حقوق الله تعالى هى مسألة تتعلق بالإيمان. وذلك لأنها ترتبط بعقيدة المسلم. وإن إلزام غير المسلمين بهذا الشرط يصطدم بمبدأ حرية الاعتقاد.

من المنطقي أن ينتهى الإمام أبو حنيفة إلى نتيجة بعينها؛ وهى إعفاء الأجنبي المُقيم في دار الإسلام من هذا الشرط؛ وذلك إذا لم يكن يدين بالإسلام. يمكنك أن تضع موقف أبى حنيفة الأخير بين مواقفه التى دافعت عن حرية الاعتقاد. مع ملاحظة أنها تنطوي على تمييز في العقاب؛ لمصلحة الأجنبي الذى لا يعتنق دين الإسلام.

ومع ذلك أرجو - عزيزى القارىء - أن تتمهل قبل إطلاق هذا الحكم. ذلك أن الذمي لا يستفيد من التمييز المذكور؛ الذى يتمتع به الأجنبى غير المسلم؛ على الرغم من أن كلا منهما لا يدين بالإسلام. ينبغى - إذن - البحث عن الفكرة؛ التى كانت قد أثرت في آراء شيخنا أبى حنيفة في المسألة التى بين أيدينا.

أما الفكرة: فهي أن الذمي يتمتع بالإقامة الدائمة في دار الإسلام؛ بينما لا يحصل المُستَأمَن الأجنبي إلا على الإقامة المؤقتة. منطق أبى حنيفة: أن التزام الفرد بالأحكام الشرعية يجب أن تؤسس على طبيعة الإقامة - المُقررة له - في دار الإسلام. وهى الإقامة التي يتم السماح بها وتنظيمها بواسطة سلطة الدولة؛ وليست بالاعتماد على السلطة التى تتمتع بها جماعة المسلمين.

يمكنك القول - عزيزي القارئ - إن أبا حنيفة كان أقرب إلى فكرة النطاق المكاني في تطبيق الأحكام الشرعية. ولدينا المزيد من التفاصيل حول هذه المسألة؛ وسنلاحظ فيها كيف أن فكرة المساواة القانونية كانت أوسع نطاقا عند صاحبى أبى حنيفة. وذلك لأنهما لم يميزا بين الأجنبى غير المسلم؛ وبين الأجنبى المسلم؛ فى العقاب على جرائم الحدود. وسنلاحظ كيف أن اختلال المساواة أو انتظامها - بين الأحناف - لم يكن يستند إلى مسألة الديانة؛ بل إلى طبيعة الإقامة فى دار الإسلام.

- ماذا لو ارتكب المُستَأمَن أو الأجنبي إحدى الجرائم في دار الإسلام؟. يرى أبو حنيفة أن المُستَأمَن - أو الأجنبي غير المسلم - لا يُعاقب على جرائمه التي تقع على حقوق الله تعالى. ويقصد بذلك جرائم الحدود؛ وأهمها السرقة والزنى. أما كل جريمة تقع منه على حقٍ من حقوق العباد: فإنه يُعاقَب عليها أسوةً بغيره من الرعايا.

- ومع ذلك استثنى أبو حنيفة جريمة القذف: إذ كان يرى أن المُستَأمَن يُعاقب عليها. وذلك على الرغم من أن جريمة القذف تدخل ضمن جرائم الحدود. وأما حُجته في ذلك: أنه يُشترط للمُعاقبة على جريمة القذف: أن يتقدم المجنى عليه بالدعوى فيها. وإن هذا القيد - على نظر الدعوى فى جريمة القذف - يفسر لنا الاستثناء الذى وضعه أبو حنيفة في هذه المسألة.

- أما عند صاحبي أبى حنيفة: فإن المُستَأمَن يخضع للعقاب في جميع الجرائم؛ سواء كانت الجريمة قد وقعت على أحد حقوق العباد؛ أو كانت حدا من الحدود وكان حق الله تعالى فيها هو الغالب. ومن هذه الحدود: حد السرقة... وهكذا فإنه لا عبرة عند الصاحبين بطبيعة الإقامة المُقررة للمُستَأمَن أو الأجنبي. إن مجرد الإذن للأجنبي بالإقامة - ولو كان إذنا مؤقتا - يُلزمه بالأحكام الشرعية المُطبقة في دار الإسلام.

معمر نصار يكتب

عن سالم حميد
إمرؤ الشعر

هو محمد الحسن سالم حميد (بتشديد الميم)، أحد عمداء شعر العامية السودانية، والشعر العامي العربي بشكل عام، وواحد من رهط اللذين صعدو بالكلمة من أسر الوصف والغزل البسيط إلى رحابات لا تحد، فأصبحت معبر المهمشين والبائسين والباحثين عن المغزى حيث أمكنهم ملامسة أرواحهم ومعانقة ذواتهم التي اعتصرتها تصاريف التطورات الاجتماعية والاقتصادية، التي لا يدرون من أين تأتي ولا يملكون لها دفعا.

ولد في قرية «جريف نوري» بشمال السودان عام 1956، ذات عام الاستقلال. تحفى مع الصبيان في الواطات الواسعة ومارس الزرع والرعي وعاش حياة الريف بكل تفاصيلها. أوقفت الأقدار مسيرة تعليمه عند المرحلة الثانوية، كغالبية السودانيين حتى عهد قريب قبل انتشار الجامعات الولائية في التسعينيات. كانت الجامعة قدرا سهلا لمن يملكون ترف الإنفاق على اغتراب أولادهم في الخرطوم أو مصر، أو تحمل تأخير انتظام الأبناء في الحياة العملية الوظيفة رغم مجانية التعليم. وهو ما يضع علامات كثيرة حول مفهوم المجانية الذي اختزل في تجربة التحرر الوطني فقط، إلى إعفاء عام من المصروفات الدراسية الجامعية وخصوصا في بلد مترامي الأطراف كالسودان. قضى فترة الدراسة الثانوية في مدرسة عطبرة الشعبية الثانوية وقد التحق بالعمل في هيئة الموانئ ببورتسودان عام 1978 وبقي بها حتى عام 1992.

عايش وقرأ ورأى وسمع واختزنت قريحته جميع التفاصيل وألمت بكل أطراف اللغة المسموعة ومناقعها العصية والسهلة، فتميز شعره بالموسيقية العالية وسهولة الحفظ رغم وعورة بعض ألفاظه اللتي قد تستغلق على ساكني المدن ومن يجهلون تفاصيل العيش في الريف والبادية أو الحواري الفقيرة، لكن أشعاره نشرت الكثير من تلك المفردات وقربتها بفضل موضوعاتها الفريدة وعواطفها المرسلة دون تكلف. كتب لذلك كأغلب شعراء العامية العرب الشعر الغنائي الطربي، فتغنى بشعره كبار المطربين كالعملاق مصطفى سيد أحمد الذي غنى له الشعر العاطفي مثلا، و أيضا لحن وتغنى برائعة حميد «عم عبد الرحيم» كما تغنت بأشعاره فرقة عقد الجلاد (فرقة موسيقية مهمة ظهرت وتطور مشروعها الموسيقي بين السبعينيات إلى التسعينيات من القرن العشرين، تميزت باختيار القصائد اللتي تؤديها المجموعة وتقديم ألحان متميزة، حتى إنهم تغنو بافتتاحية أمل دنقل لقصيدة «كلمات سبارتاكوس الأخيرة»)، فقدموا له مقاطع من غنائيته الطويلة الفائقة الجمال»نورا» تحت اسم «نعمة والحلم المدردح». منذ عام 1992 وما تلاه لفترة وُضِع تحت إقامة جبرية بشكل غير رسمي، حيث كانت أجهزة الدولة تمنعه من التنقل في أنحاء السودان فكان كلما هم للسفر إلى أي مكان لحضور احتفال أو فعالية أدبية، تعيده إلى محل إقامته وتمنعه من السفر تحت دعوى ضرورات الأمن.

يعد حميد أكثر شعراء العامية العرب ارتباطا بالقضايا التي تشغل الشعوب ولكنه يمتاز بوعي أكثر حضورا في القصائد من نظرائه المعروفين، انحيازه الطبقي لأبناء الشعب المغبونين صريح مثل فؤاد حديد وبيرم التونسي، ولكن انتشاره أقل حظا بسبب التقصير الإعلامي العربي تجاه السودان بشكل عام وتجاه الفن السوداني بكافة ألوانه بشكل خاص. أصدر حميد عددا من الدواوين الشعرية:

فرقة عقد الجلاد

نورا، حجر الدغش، الجابرية، الرجعة للبيت القديم و ست الدار وغيرها، وجوابات ست الدار (جوابات ست الدار للزين ود حامد) هي ملحمة شعرية بالغة الأناقة وعالية الشهرة داخل السودان بسبب مكوناتها ومحمولاتها الفكرية وما تضمنته من شهادة حية رغم بساطة نماذجها الإنسانية التي اختارها من طين الأرض وأوجاع المدن، عن العامل الزين ود حامد اللذي دفعته قلة الأرض والحاجة إلى الاغتراب في العاصمة عاملا في مصنع من مصانع الدولة، لتدور رحى الحياة وأعاجيب التحولات التي أجراها نميري بالارتماء في الحضن الأمريكي لتلقي ظلها على الزوجين الكادحين ست الدار والزين، يبثان لأحدهما الآخر أطرافا من شجونهما حيث تحكي له ست الدار عما يدور في القرية في غيابه، من مجئ خبراء الآثار الأمريكيين يفتشون عن اللقايا والمقابر التاريخية، ليرادفه خطابه لها عن مأساة المدينة من مجيء خبراء أمريكيين أيضا للبنك الدولي الذين دفعوا الدولة إلي تشريد العمال والخصخصة. ليدخل ود الزين معترك الاحتجاج للمرة الأولى في حياته ويساق مدافعا عن لقمة عيشه إلى مواجهة قنابل الغاز والكرابيج وصولا إلي السجن والتشريد، كل ذلك بلغة شديدة الغنى والصدق إلى درجة اعتبارها واحدة من الوثائق الحية عن التحولات اللتي قادها نميري، ناقلا السودان من مشروع الاستقلال والتحرر الوطني إلى حِجر التبعية الأمريكية.

ست الدار بت أحمد كيفك

جاني جوابك مفتوح شارع

جاني جوابك وانا بتذكر

في ناس راشد والتومات

في الشتلات والحالة عموم

ناس حلتنا التحت.. الفوق

,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,

ولما بكيت.. يا ست الدار

أيوة بكيت.. يا ست الدار

لما قريت علماء آثار

علماء إيه يا بت الناس

سواح إيه.. ما عندك راس؟

كمره وهيصة وخواجات؟

جعفر وعمدة وفراجات؟

ست الدار تتوهدبي ليه

يا ام الناس تتوهدبي ليه

ديلا جماعة السي آي إيه

تعرفي إيه السي آي إيه؟؟

امريكان في كل مكان

ديل مالين الدنيا ملي

ديل قالين الخلق قلي

باسم الدين والأمريكان

أي عوج مبدي ومختوم

صوتنا هناك وهنا مكتوم

ومافي فرق في الوقت الراهن

بين واشنطن والخرطوم

أنا مأزوم.. مأزوم.. مأزوم

,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,

سبي معايا الشردو راجلك..

والحرمونا شوية الضل

سبي الحالة العالة علينا..

حتى احكيلك بالتفصيل

حاصل الحاصل يا بت أحمد

جاني وفد في المصنع زاير..

وكان الوفد ده أمريكاني

لفّ وفات اليوم التاني

جانا مدير المصنع فاير

وشو حمار العمدة العاير

نف المصنع فيهو خساير

وقالوا يخفضوا مئتين عامل

مئتي عامل في فد مرة

مائتين عامل.. مائتين عامل

يبقوا هوامل.. يبقوا هوامل؟؟

ولقد كانت جوابات ست الدار، إبداع حميد مضاهية لجوابات حراجي القط التي أبدعها الأبنودي خلال بناء السد العالي، لكن جوابات ست الدار لحميد حملت هموما من نوع مختلف وتصاوير التحولات التي عايشها حميد أثناء تحول النميري من ثوري إلى تابع، يبيع ويتصرف في تركة التحرر الوطني بمنتهي الكرم مع الاستعمار الجديد. جاءت جوابات ست الدار صورة واقعية من آلام وأشجان الشعب السوداني وهو يودع عيشة الاستقلال والحلم بالغد الأفضل والتنمية التي تلمس حياة الجميع، ليستقبل عالما من الشح والركود يبدو بلا نهاية.

و لم تتوقف عبقرية حميد عند رصد وتحليل التحولات السياسية وآثارها الاجتماعية ببوصلته الشفيفة اللتي تركبت من المثقف الواعي وابن الأرض المخلص للحارات وأرصفة الميناء وحجرات البيوت الترابية الفقيرة، المثقف ابن الشعب حقا لا ادعاء، فقد رصد أيضا بمنظار بالغ الدقة والرهافة كيف يمكن للتحولات الرأسمالية والتمدين العشوائي دفع صغار المزارعين المستقلين ليصبحو عمال مياومة، وكيف تنحدر الحالة عبر الزمن ليصبح هؤلاء المساتير فقراء حقيقيين يتقلبون في صحوهم ونومهم يتساءلون كيف جرى هذا؟ في رائعته عم عبد الرحيم يرصد شعرا مشاعر وعواطف تتقلى بين تراب الأرض وأثير السماء، حوارا داخليا للعامل المؤقت والفلاح السابق بينه وبين حاله تائها «مدنقرا» قليلا في تراب السكة و»مصنقعا»، تارة في امتداد السماء حتى تسقطه توهته تحت عجلات القطار وسط صيحات العابرين المشدوهين.

عم عبد الرحيم

كت فلاح فى يوم

فى ايدك تنوم

على كيفك تقوم

لا دفتر حضور

لا حصة فطور

تقرع بالقمر

تزرع بالنجوم

لكن الزمن دوار آ بيدوم (أبي أي رفض أن يدوم)

عم عبد الرحيم

,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,

حيكومات تجى

وحيكومات تغور

تحكم بالحجى

بالدجل الكجور

ومرة العسكرى

كسار الجبور

يوم باسم النبى

تحكمك القبور

تعرف يا صبى

مرة تلف تدور

ولا تقول برى

او تحرق بخور

هم يا الفنجرى

يا الجرف الصبور

كل السقتو ما

باقى على التمور

وارضك راقدة بور

لا تيراب وصل

لا بابور يدور

والماهية اف

عيشة هاك وكف

فى هذا الزمن

تب يا دنيا تب

فى هذ الزمن

تف يا دنيا تف

يا العبد الشقى

ما اتعود شكى

لكن الكفاف

فوقك منتكى

والسوق فيك ياسوق

حالا ما تسر

الا كمان فى ناس

فايتاك بالصبر

ساكنين بالايجار

لا طين لا تمر

واحدين بالايجار

ما لا قين جحر

سلعتم الضراع

والعرق اليخر

عمال المدن

كلات الموانى

الغبش التعانى

بحارة السفن

حشاشة القصوب

لقاطة القطن

الجالب الحبال

الفطن الفرن

الشغلانتو نار

والجو كيف سخن

فرقاً شتى بين

ناس عيشا دين

مجرورة وتجر

تقدح بالاجر

ومرة بلا اجر

عيشهم كمهو

ديل شوف كمهم

وديل شوف هان قدر

* * * * * * * * * *

وناسا حالا زين

مصنع مصنعين

طين فى طينو وين؟

ما مرابو مر

بارد همها

لا بعرق جبين

لا وشا يصر

عين والله عين

كلها كمها

عزها هان قدر

دى الجنة ام نعيم

الجنة ام قصر

يا عبد الرحيم

الا ورا القبر

يلكد فى الحمار

لا تسرح كتر

وان كان الفقر

يا عبد الرحيم

اشبه بالكفر

****

في رائعة الخالدة، نورا ينطلق خيال حميد كفارس للمعنى يبارز الدنيا الشحيحة والعالم المتضعضع فوق جسد نورا الضعيف، لكنها تعاود القيام ومبارزة هذا العالم إلى جانبه مرة بعد مرة، فلا تتوقف يوما عن العطاء عن حمل الهموم والتصرف كحارس كوني لهذه البقعة المنسية من الأرض في قرية فوق جرف لا يعرف بالتحديد؛ حتى سالم حميد نفسه، أين يكون أو كان أو سيكون. تجسدت نورا كأسطورة بلا مقدمات وكأنها حلم، يمثل المرأة المثقلة بكل عوارض العالم لكنها المتخففة من كل هزيمة كقلب صوفي راسخ الإيمان، تنبثق بسلاسة من سؤال استنكاري يطرحه على العابرين، يتساءل الراوي: إذا لم تعرفو نورا فماذا تعرفون قط؟ ملحمة قيامة نورا بلا ميلاد ونهايتها التي لا تبدو كنهاية أبدا «كمسيح» في جسد أنثى، تقهر العوارض والآلام وكل ما افتعلته الحضارة وتفي لوجودها المحض في نهاية المطاف، لتكشف عن إمكانية قيام عالم حقيقي محجوب هناك وراء الدرادر والمظالم.

هي.. أقيفن.. نورة فيكن

نورة نقاحة الجروف..

نـورة حلابـة اللبينـي.. للصغيريـن والضيـوف

نـورة سـاعة الحـر يولـع.. تنقلـب نسـمة وتطـوف

تدي للجيعان لقيمة

وتدي للعطشان جغيمة

والمخلي الحال مصنقر..

فـي تقـاة الليـل تندقـر.. تـدي لـي باكـر بسـيمة

تكسـي للماشـين عرايـا وفوقـا إنقطـع هديمـا

مـا عرفتـن نـورة إنتـن.. قولـن إنتـن شـن عرفتن

نـورة بـت الواطـة أخيتـي.. نـورة اخـت كل الغلابـة

نـورة حاحايـة الشـقاوة.. نـورة هدايـة الضهابـة

الاراضـي اليامـا أدت.. نـورة بقـت مـن ترابـا

ماشي في الأعماق سحابا

مشتهنها.. والله جابا

للجنـوب طبـلاً يهدهـد.. لي مشـاعر نـاس تعابة

وللشـمال طنبـور يسـكت.. دمعـة الميتيـن كآبـة

مـا عرفتـن نـورة إنتـن.. قولـن إنتـن شـن عرفتن

نورة عايزة تقرا قالت

فوقا حيطة الدنيا مالت

ختت الكراس وشالت

منجلاً صالت به جالت

لمن إنجرحت به شالت

للتراب فوق إيدا كالت

ومرة يوم في الدونكا لدغت

جاء الفقير بالليل حواها

ويـوم ملاهـا الهـم قطايـع.. جـاء البصيـر بالنـار كواهـا

ونـورة مـا قـدرت تمانـع.. تقنـع النـاس المعاهـا

ومـرة شـافت فـي رؤاهـا طيـرة تـاكل فـي جناهـا

حيطـة تتمطـى وتفلـع.. فـي قفـا الـزول البناهـا

فـي جنينـة سـيدي سـمعت.. تمـرة تصقـع للوراهـا

الأرض لابـد ترجـع للتعـب فوقـا ورعاهـا

شافت النيل موجو لاها

الخليقة لقت إلاها

الشمس طبقت ضحاها

نـار عقـاب إنسـاب مكسـر.. فـوق تكليـات متاهـة

وضـو مـن الله.. رهـاب مكتـف فـي وتيـد الليـل معاهـا

بين حضر بلدا وخلاها

فسرت للناس رؤاها

وقالوا جنت ومو براها

ونورة زادت فوق شقاها

وصدت الأيام تخش

تبني لي عصفورة عش

في السواقي تشوف عزاها

لما شوقا يسوي.. وش

تسقي تزرع

تسعى تصنع

للنهار في الليل تخش

عرفـت الشـقا والشـقاوة إلا مـا عرفـت تغـش

شـايلة طولـة البـال مـن الله.. ومـن أراضينـا الإثـارة

وماشية تكدح طول نهارا

وترجـى لمـا الليـل يفلـل.. تسـرق ألمـي لـي خـدارا

عشان صغارا

ولما ترجع لي ديارا

تنزف أحلام الفقارى

من عويناتا الحيارى

لي غبار الحال تقش

فوقو للآمال ترش

نـورة تقعـد صاحيـة تحلـم.. بـي بيـوت بـي نـور ودش

وبالمحبـة تشـق دروبـا.. ولـي قلـوب الـكل تخـش

نورة تحلم بي وجود

ما مشت بينو القيود

أفضـل أفضـل بـي كتيـر.. بـي وطـن مـن غيـر حـدود

نورة تحلم بي عوالم

زي رؤى الأطفال حوالم

لا درادر.. لا عسـاكر.. لا مظاليـم لا مظالـم

نـورة تحلـم.. ولمـا تحلـم نـورة

ترجـف

ولما ترجف نورة تحلم..

فـي مثـل تلـك الأيـام قبـل إحـدى عشـرة سـنة هـدأ جسـد حميـد الدنيـوي وتخفـف مـن أثقالـه وصعـد إلـى الجـروف حيـث الوطـن بـلا حـدود، وإلـى صحبـة أفضـل أفضـل بكتيـر، لعلـه الآن يرقـد فـي سـلام واثقـا مـن حمايـة نـورا لروحـه الرقيقـة، يهـدئ مـن روع عبـد الرحيـم أو يسـتمع كضيـف إلـى سـت الـدار. غادرنـا حميـد بعـد أن زرع الحلـم وقـد أنـزل الفلسـفة إلـى الأرض وألبسـها ثيـاب الشـعر، تمكـن حميـد بلغتـه الرشـيقة ومخيلتـه البديعـة مـن نسـج النظريـات فـي غنـاء للنـاس كلات المواني عمـال المـدن فقـراء الفلاحيـن. يعـد الكثيـرون حميـد متفلسـفا كثيـرا فـي قصائـده، ولقـد كان دون تكلـف ودون أن يغـادر مقعـد التلميـذ مـن الشـعب. استطاع حميـد ببسـاطته الصافيـة ووجدانـه المسترسـل ولغتـه المنحوتـة مـن الشـارع والحقـل والرصيـف وعربـات القطـار وورش السـكة حديـد وصلـوات النـاس وتسـابيحهم أن يصنـع مـن الفلسـفة قصيـدة وأغنيـة، ومـن المعنـى منجـلا في يد فـلاح ومعـولا فـي يـد عامـل، ومـن الحلـم شـوقا تحسـه القلـوب وتهفـو إليـه، مثلـه كخيـال لا يراوغهـم إلا قليـلا، يقودهـم فيهديهـم.

رحلة الى الجسر

محمود فنون

دخل الحرم الجامعي مستعجلا فلم يبق على موعد المحاضرة سوى ثلث ساعة وكالعادة يدخل الى مجلس اتحاد الطلبة في الجامعة الاهلية، ليتابع بعض الامور الروتينية قبل ان يذهب الى المحاضرات:
-»ما رأيكم برحلة الى الأردن؟ سمعت عن برنامج رحلات سياحية لمدة ثلا ايام بكلفة معقولة ..«
سمع ذلك وكأن أحدا طرق على باب ذاكرته وأيقظ مشاعره الجميلة ,فهو قد ولد في الاردن ونسج خيوط طفولته هناك ,ولما عاد اليها في زيارة بعد ان كبر قليلا ,والتقى بأقرانه استعاد بناء ذاكرته الطفولية بشكل محسن واكثر وضوحا ونضجا فقد ذهب الى معظم الاماكن التي بنى فيها كينونته الصغيرة ,ووجد ان اقرانه قد كبروا معه ايضا وتداعت ذكرياتهم معا ,وود لو يذهب الى جميع الاماكن السياحية التي تذكر انه ذهب اليها ..البحر الميت ..العقبة.. احراش جرش ودبين..
«انا سأذهب معكم في هذه الرحلة ..»قال حازما
- » و لكن . . . ؟ ! «
-»لا لكن, ولا غير لكن ..سوف اجرب مرة أخرى«
تسلل خبر الرحلة من تحت الباب وخرج الى دوائر تزداد اتساعا في اوساط الطلبة، والكثير منهم لم يسبق له ان غادر فلسطين الى أيّ مكان.

وكان الخبر يكبر ويتكامل كلما انتقل من جماعة الى أخرى. اخذوا يتوافدون على المجلس للتأكد من صحة الخبر .
-»هل سمعت ؟لقد نظموا رحلة الى الأردن..«
-»هل صحيح سجلتم في رحلة جماعية الى الأردن ؟ولماذا تكتمتم على الموضوع ؟ولماذا لم تسجلوا اسمي؟و..«
-»الكثير من الطلبة يرغبون في التسجيل لهذه الرحلة.«
-»جيد ,هذا مشجع وسوف نعلن عن التسجيل قريبا ولكن بعد ان نتفق مع الشركة السياحية ونتفاهم على البرنامج والتكاليف..«
انتشر الخبر كالنار في الهشيم ,فالجامعة لا زالت في مراحل تطورها الاولى ومجمعة في مبنى واحد على رأس تلة مجاورة لمخيم الدهيشة يظهر مبناها كقلعة قديمة اضيفت لها مظاهر الحداثة والشموخ.
تك تاك.. تبادل مجلس اتحاد الطلبة كل ما يلزمه من معلومات مع احدى الشركات السياحية الاردنية , و بدورها قدمت عرضا مغريا في السعر والبرنامج وكأنها ترغب في تشجيع الطلبة على السوح في الاردن وكأنها تستجيب لما دار في خلد الكثيرين منهم.
ما ان انهى المحاضرة الاولى حتى عاد للمجلس ليجد زملائه يطبعون الاعلان ويستنسخوه للصقه على اماكن النشر مع موجز بالمعلومات الضرورية.
كان احد الطلبة يعبر من المكان فتناول نسخة من الاعلان وخرج مسرعا يمتلىء وجهه بالبشاشة ويحدوه الامل.
-»ساتظاهر بإلصاقه امامها ..ليتها توافق على المشاركة ..»قال في نفسه.
-»ما الذي تحمله ؟»قال أحدهم.
-»هذا لا يخصك..«
-»هذا اعلان الرحلة وسوف تسجل شلتنا كلها ..فقد اتفقنا على ذلك»اكد صاحبه بغرور.
-»طبعا لا مشكلة لديكم ..فالله قد انعم عليكم..الحسرة ان الكثير ممن يرغبون بل يتلهفون على الذهاب يحصلون على اجرة الوصول الى الجامعة بصعوبة ..«.
-»إن معظم البنات يرغبن في الذهاب والخروج للمرة الاولى الى الاردن «بل الى أي مكان بدون احتلال»قالت احدى الزميلات.
* * *

-»لو انها تقبل الذهاب ..لو انها تقبل ان أدفع عنها تكاليف الرحلة ..والله ..طيب من اين تدفع عن نفسك؟ ..سأدعوها للمشاركة..
«نركب معا مركبا صغيرا ونجذف سويا في العقبة ..لا.. لا..انا فقط اجذف وهي تشرد وتتمتع بمنظر البحر وتضحك بحرية وبصوت عالي ..تقترب مني قليلا وتنظر في وجهي لأشاهد مقدار سعادتها ..
- اناسعيدة جدا..
- لماذا؟
-ألا تعرف؟وتضع اصبعها على اقرب نقطة من فمه ثم تدير وجهها بدلال, لسببين :لأن هذه اول مرة اشاهد فيها البحر بل واركب قاربا فيه ..
- و ا يضا ؟
-لا ايضا ولا غيره ..اعرف انت لوحدك. فشعر بسعادة غامرة...«.
تجول هنا وهناك بحثا عنها، فهو منذ سمع بخبر الرحلة كانت هي وهي فقط أول من ملأ كيانه وخطر على باله, واسرع نحوها وعرض اعلان الرحلة امام انفها وبطريقة لا لبس في انها رأته..

-»هذا اعلان الرحلة وانا عارفة بها «وأردفت «الكل سمع بها والكل يرغب في الذهاب .» قالت ببرود وسارت الى شأنها.
-»تتجاهلني! ..لا تكترث!.. لا بل ربما انها لم تفهم ..»وشوش نفسه بامتعاظ .
لقد حاول لفت انتباهها اكثر من مرة,انها من اسرة ميسورة الحال ووالدها رجل محترم وهي زهرة الياسمين معبقة بندى الصباح .أما هو فبالكاد يتدبر امر نفقة دراسته بالاضافة الى ديون الاقساط المتراكمة.. تخيل هذا وانطوى على نفسه.
اجرى القادرون على اتخاذ قرارهم فوريا اتصالاتهم بذويهم وتوجهوا للمسؤول عن تنظيم الرحلة وسجلوا اسمائهم .اما هو وبعد حيرة نتجت عن تشوش افكاره فقد حسم امره بالتسجيل ان وافق ابوه على دفع نفقات الرحلة .
-»كلنا راغبون في الذهاب «قال احدهم مكررا ما قاله آخرون» لو ان الرحلة بدون ..:رفع قبضته قليلا وقال بغيظ وهو يكزّ على اسنانه «الله يلعن الفقر..» ولو كلمّه احدهم بأي كلمة للكمه على صحن خده دون ان يدري ما ذا فعل.
* * * * *
ضحك قلبه .وشعر وكأنه يقلّب الشمس بين يديه .لقد كبر وأمضى سنتين من العقد الثالث من عمره ,وشعر بفخر لا حد له حينما وافق ابوه على تدبر نفقات الرحلة.انه يعلم الحال كله ,وعندما فسر والده تأييد ذهابه امام امه ,تمنى لو انه يملك العالم ليقدمه لوالديه.
-»حاول يا بني ان تزور الاقارب وبالأخص عمتك «قال ابوه.
-»واقتصد في نفقتك ..وديرٍ بالك على حالك ..انشاء الله يا ربي تتمكن من تحقيق مرادك..» قالت امه.قبلته وادارت وجهها.. ثم عادت ونظرت في عينيه وقبلته مرة أخرى بصمت وانصرفت دون هدف.
* * * *
تواصل مع اصدقائه بعد ان تناول الطعام مع الاسرة وانصرف الى تحضير لوازمه بلذة وانشغال واضحين .كان قد التقى مع امه في اليوم التالي في السوق واشترى بعض الملابس واللوازم في طريق عودته من الجامعة,واستكمل احتياجاته من محلات القرية,وتأكد من البطاقة الخضراء وجواز السفر, وحزم كل شيء في الحقيبة وخرج ,ربما لأن الدار لم تعد تتسع له.
* * * * *
جمعوا ما يملأ الحافلة من الراغبين من الطلبة وذويهم,امهات وأخوات واخوة,وانطلقت الحافلة نحو الجسر ووجوههم يملأها الحبور,وما ان تجاوزت العبيدية حتى انطلقت حناجرهم بالغناء وكل اشكال المرح .

هم يفرحون بصباهم وبتجربة جديدة لمعظمهم،ولما ملأ ت الاصوات اذنيه افترق عنهم.. ..بعد ان غادر «جسر اليهود» اتصل بخاله الذي كان يعلم بمقدمه ,وانتظره على الجسر ،حيث افترق عن الجماعة راكبا مع خاله وأولاده الذين هجموا عليه مداعبة وألفة ، وبالكاد تمكن من مهاتفة عمته ليعلمها بوجوده وارتباطه بالرحلة وقد وعدها بأن يتخلف عن الرحلة لبعض الوقت وزيارتها وهكذا هاتف جدته وأقربائه خلال سير السيارة وراء الحافلة السياحية التي تقل الفوج السياحي ..
-»لو اننا في عطلة لتخلفت عن الرحلة حال انتهائها وذهبت لزيارة الاصدقاء ورفقاء الطفولة ..» «سمعت جدتي لأبي تقول «ان الآلام تورّث , فهي كانت ممنوعة من كل شيء الا بصعوبة ، وبعد محاكم وبعد انقضاء اوقات متباعدة ..» وقبل بضع سنوات حينما شكلوا سلطة الحكم الذاتي قالت :»الناس ناسين بعضهم يأكل القلاج وبعضهم يقع في السياج» حقا انه في بلادنا قد يحصل ان تورث الاسر مواقفها لأبنائها

اشتباك.. الهوية والهدف

موقع عروبي دوره ومهمته المقاومة والنقد وبلورة وتعميق وعي نقدي.
موقع عروبي باتساع هذا الوطن، ويحمل همومه والدفاع عن حقوقه وطموحاته.
وعليه، فهو موقع علمي تقدمي اشتراكي يضع التحرر والتحرير والتنمية في طليعة ما ينشر سواء المقروء أو المرئي أو المسموع.
وعليه، فاشتباك يشتمل على الأدب، الفن، السياسة، الاقتصاد السياسي، منجزات العلوم، علم النفس، الرسم، النحت ومختلف أعمال ونتاج الفكر البشري، وبهذا المعنى فالموقع يرتكز على رؤية تاريخية ومقارنة.
ولأن الوطن العربي في حقبة التحرر القومي والاجتماعي فإن اشتباك موقع يواجه أنظمة وطبقات التبعية سواء، الأمر الذي يعني بالضرورة تركيز العمل على استعادة المواطن العربي من أنياب الإمبريالية والصهيونية والأنظمة التابعة وأدواتهم من قوى الدين السياسي.
لذا، سيجد من يتابع اشتباك مدرسة في النقد والرد والصد والتوجيه.
وإذا كان لنا أن نقوم بهذه المهمة، فإننا نفتح اشتباك لأمرين هامين، وإن لن يكونا وحدهما:

- تغذية اشتباك بما يتقاطع مع رؤيتنا أعلاه سواء ممن هم في فريق اشتباك أو يتقاطعون مع أهدافه من خارج فريقنا الذي يعمل كفريق تعاوني.

- استقبال النقد العلمي والملتزم.

«إن سلاح النقد لا يغني عن نقد السلاح».

Facebook:
https://www.facebook.com/EshtebakAraby/
Twitter:
https://twitter.com/eshtebakpage
Telegram:
https://t.me/EshtebakAraby
Website:
https://ishtebak.almowajaha.net/
YouTube:
https://youtube.com/channel
UCj١٠tLPUX٠UIUyy٤Xi٢SxMw

لتحميل الأعداد السابقة من مجلة أشتباك عربي

العدد الرابع:
https://drive.google.com/file/d/١TYy٢k٩S٤Bb٢CYI٤٠hMlEEsXKBBruuS١x/view?fbclid=IwAR١w-hi٨-i٣Zc٠YK٤uO١lipO٩١tU٢WmrUcEVtC-w١UNEbDOSZfQSq٧DlJzM

العدد الثالث:
https://drive.google.com/file/d/١a١MXEDYOuCX٦hmzI٢d٣VssaC٣xzoyqko/view?usp=drivesdk

العدد الثاني:
https://drive.google.com/file/d/١_x٨H٦bxQXu٨١٨KwkGMfPR٦vke٨YOU١CM/view?usp=sharing

العدد الأول:
https://drive.google.com/file/d/١_Uoe٦QqPZFBRtCGrcMZFYQ٦BnNxi٩req/view?usp=drivesdk

اشتباك#

مجلة_اشتباك_عربي#

الأعداد السابقة